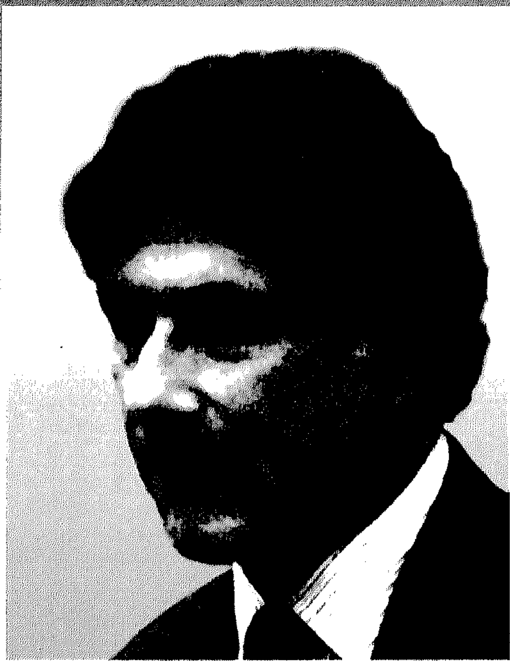
إدوارد سعيد

القلم والسيف



حوار:
دافيد بارسامیان

ترجمة:
توفيق الأسدي

إدوارد سعيد

القلم والسيف

حوارات

مع

دافيد بارساميان

ترجمة

توفيق الأسدي

القلم والسيف

إدوارد سعيد

الناشر: دار كنعان للدراسات والنشر
دمشق – برامكة – هاتف ٢١١٣٣١١

الطبعة الأولى / ١٩٩٨
عدد النسخ / ١٠٠٠

تصميم الغلاف: جمال الأبطح
اخراج: لبنى حمد

شكر

في عام (١٩٧٩) كنت بصدد إنتاج «من نهر الغانج إلى نهر النيل»، وهو برنامج أسبوعي حول الموسيقى الشرقية لمحطة KGNU في بولدر. وقد ألهمني كتاب «الاستشراق» لإدوارد سعيد أن أجعل سياق البرنامج ضمن إطار سياسي وثقافي وتاريخي. ولو أني انتهيت من «الغانج»، إلا أن إدوارد سعيد يستمر في إغناء عملي بالمعلومات. ولم أقابله حتى عام (١٩٨٧) خلال حوار أجراه في مدرسة تقع في حي إيست سايد في نيويورك. بعد أيام قليلة أجرينا أول حواراتنا. أتذكر أنه سألني مستبشراً: «أعندك بعض الأسئلة الجيدة؟». ومنذ ذلك الحين استمرت الأسئلة والأجوبة. بعض الحوارات في هذه المجموعة أذيعت في الولايات المتحدة ودولياً على إذاعة «أولترناتيف راديو». وقد سجلت كلها من قبلي في نيويورك باستثناء الحوار الأخير الذي جرى على الهاتف.

شكراً لـــ «هـــ. آرام فيسر» و «زينب استرابادي» لتشجيعها ونصحها ومقترحاتها، ولـ «ساندي آولر» لنسخ الشرائط.

وأثمن عالياً إقبال أحمد لكتابته للمقدمة.

أشعر بقرابة لإدوارد سعيد وهي قرابة متجذرة في تجربتي الحياتية - على الأرجح - والتي تبرز فيها موضوعات المنفى وسلب الأوطان. إن امتناني له ملتحم بالكثير من المودة والاحترام.

دافيد بارساميان

بولدر - كولورادو

حزيران ١٩٩٤

مُقدِّمة

بقلم إقبال أحمد

في البداية قد يسأل المرء: لماذا هذه المجموعة من الحوارات مع كاتب غزير الإنتاج وشهير بقدر إدوارد سعيد؟. إن معظم كتبه تدرس بانتظام في الدورات الجامعية في كل أنحاء الولايات المتحدة وأوربا. لقد أصبح كتاب «الاستشراق» واحداً من عيون الكتب في الواقع. يتم تعلم حجته بالتناضح ويُستشهد بها حتى من قبل أولئك الذين لم يقرؤوها. إن وجهات نظر سعيد تُنقل أيضاً إلى ملايين الناس عبر مقالاته التي تنشر في منشورات شعبية وعبر لقاءاته العديدة في الراديو والتلفزيون. فما الفائدة إذن من هذا الكتاب صغير الحجم من الحوارات؟

أحد الأجوبة هو أن هذا الكتاب يكشف أكثر من أي كتاب سابق الشخص الكامن وراء الاسم. إن معظم كتابات إدوارد سعيد من النوع البحثي والتحليلي. العقل هناك كله ولكن ليس الإنسان. بعض كتبه، بما فيها «الاستشراق» و«قضية فلسطين» و«شرح الإسلام»، تحوي أيضاً جدلاً يعطينا لمحات عن التجارب والمشاعر التي ساهمت في تشكيله كناقد ذي أصالة عظيمة واستشراق معارض. هناك كتاب أصغر حجماً يجمع بعض الحكايات «بعد السماء الأخيرة» ومقالة بعنوان «عقل الشتاء» تدور حول المنفى نشرت في مجلة «هاربرز» (أيلول / سبتمبر ١٩٨٤)، وكذلك حكاية تسكنك طويلاً نشرت أيضاً في «هاربرز» (كانون الأول / ديسمبر ١٩٩٢) عن عودته القصيرة إلى فلسطين، وفيلم وثائقي «قصة إدوارد سعيد» من إنتاج الـ «بي بي سي»: كل هذه تقدم معلومات عن سيرة حياته ولكنها لاتكشف إلاّ نادراً الروابط بين الكاتب وحياته. إن

طريقة دافيد بارساميان المتعاطفة في طرح الأسئلة تساعد على ردم الهوة. هذه الحوارات فريدة في الروابط التي تكشفها بين الرجل وأفكاره.

إدوارد سعيد واحد من الأشخاص النادرين الذين عرفت حياتهم تطابقا بين المثاليات والواقع والتقاء بين المبدأ المجرد والسلوك الفردي. ومنذ أن نشر كتابه «الاستشراق» في عام (١٩٧٨) فإن كلمة «جريئة» قد استخدمت غالبا لوصف كتاباته. في الحياة الفعلية، فإن جرأته ملموسة وهي مصدر إلهام وراحة للأسرة والأصدقاء. وقد تذكرت حادثة جرت قبل بضع سنوات. كان ثلاثة من الأصدقاء يتناولون طعام الغذاء في بيروت مع فايز أحمد فايز، الشاعر الباكستاني الذي فر من استبداد محمد ضياء الحق المدعوم أمريكيا ليتخذ له ملجأ لا كالملاجئ في لبنان الذي كانت تمزقه الحرب. كان سعيد منسجما تماما بينما راح فايز يلقي قصيدة «أغنية المهد لطفل فلسطيني» .عندها بالضبط اندلعت معركة حامية بالأسلحة النارية في مكان قريب. هرب الندل مسرعين إلى الداخل، ولم يبق سوانا نحن الزبائن في الباحة. توقفت غريزيا عن ترجمة قصيدة فايز من الأوردو إلى الإنكليزية، ونظرت بتساؤل إلى نوبار هوفسيبيان الذي يعرف بيروت ومقاتليها جيدا. حثني إدوارد سعيد قائلا: ' هيا تابع ' وكأنه لم يحدث شيء غير عادي. وتابعنا.

قالت لي «مريم سعيد» ذات مرة «حين يكون منهمكا فلا يهمه شيء». وقد فهمت تدريجيا على حد سواء أن إنهماكه يتم بإرادة منه، وجرأته مدعومة بحس دائم من المقصد الفكري والاستشراق الأخلاقي. في بعض الأحيان كانت حياته عرضة للتهديد من مجموعات عنيفة وكانت تلك التهديدات جدية إلى حد أن الـــ «اف بي آي» كانت تحذره بأن عليه أنْ يكن متنبها. وقد كان متنبها إلى أفضل حد ممكن، ولكنه لم يصغ أبدا إلى أي مشورة من صديق أو خبير بأن يذهب في عطلة أو

يتجنب اللقاءات في الأماكن العامة أو أن يخفف من مناصرته لقضية تحرير فلسطين. وحتى حين كانت تلك التهديدات لحياته تترافق مع حوادث اغتيال فعلية، وحتى حين اغتيل عصام سرطاوي في باريس وأبو جهاد في تونس، ظل ادوارد سعيد يعيش حياة طبيعية. وحين يسأله بارساميان كيف يتعامل مع قضية تهديده بالقتل يجيب: «*لا أفكر بالأمر كثيرا .... إذا تابعت التفكير في أي مشكلة من ذلك النوع، فإن الأسوأ يكون قد حصل عن طريق جعلك عاجزا عن العمل .... إنه لأصعب على أولئك الناس مما هو عليك .... أعتقد أن الأمر الأساسي هو أن تستمر في طريقك وتذكر أن ما تفعله وتقوله يعني أكثر بكثير من مسألة كونك آمنا أم لا* ».

التهديدات لم تتوقف بعد انضمام «م. ت. ف» إلى المباحثات في مدر يد، ولا بعد أن وقع ياسر عرفات على اتفاقية مع إسرائيل. ولكن مصادر التهديد تغيرت فحسب. هذا زمن عصيب في العالم العربي حيث تتزامن المصالح الأجنبية المتزايدة مع انهيار الإرادة المستقلة ووجود الفساد الداخلي. وفي جو من الانهيار العام، فإن الأشخاص الوطنيين يعتبرون على أنهم خطرون من قبل الحكومات التي تحكم بالإكراه وليس بالقبول. يقول سعيد لبارساميان: «*أنا على نصف دزينة من لوائح الموت في الشرق الأوسط*». في هذه الأثناء هناك عدو آخر يطارده، وهو يواجهه دون أن يخسر لحظة واحدة من حياته الهادفة. يسأله دافيد بارساميان في نهاية الحوارات قائلا: «الكثير من الناس قلقون على صحتك. إنهم يسألونني عنك. ما الذي تستطيع أن تقوله لهم؟» فيجيب: «*إنه نمط مستمر. لدي مرض مزمن هو اللوكيميا (سرطان الدم). له لحظاته السيئة ... أحاول ألا أفكر بالمستقبل كثيرا ... لدي الكثير لأقوله وأكتبه، كما أشعر، وأريد بالضبط أن أستمر في ذلك*».

«مذهل!» هكذا صرخت زوجتي حين عاد إدوارد بحماسة إلى

العمل والسفر المكثف، بعد أيام من تشخيص اللوكيميا. وقد صحح تجارب كتابه «الثقافة والإمبريالية». وحين نشر الكتاب سافر بكثرة ليقوم بالدعاية له في الولايات المتحدة وأوربا، مدهشا ناشريه بطاقته الهائلة وقدرته على التركيز وظرفه وروح الفكاهة لديه. كما صور فيلم الـــ «بي بي سي» الوثائقي عنه في ذلك الحين. وقد التقينا في لندن لتسجيل جزء منه. وخلال الأيام الثلاثة التي قضيناها هناك.

بينما أبقى ادوارد على برنامج عمله الذي يمتد لثماني عشرة ساعة يوميا. وسرعان ما كان يحضر لإلقاء محاضراته في «رايث» لمحطة «بي بي سي» ويدرس ويحاضر ويذهب بانتظام لعروض الأوبرا، ويقيم الحفلات مع الأسرة والأصدقاء.

خلال هذه الفترة كان إدوارد منهمكا في نضال خاسر لمنع ياسر عرفات من الانزلاق نحوالاستسلام. وقد بدأ ذلك في تشرين الأول (أكتوبر) من عام (١٩٩١) حين انضم رئيس «م. ت. ف» إلى مؤتمر مدريد للسلام بموجب الشروط التي أملتها إسرائيل ورعتها الولايات المتحدة، وهي الشروط المهينة والمضرة بالمصالح الفلسطينية في الواقع، تنازلت «م. ت. ف» في مدريد عن مطالبتها بتمثيل الشعب الفلسطيني، وكذلك عن حق سكان القدس المحتلة في أن يتم تمثيلهم؛ كما وافقت على استثناء المليونين ونصف المليون فلسطيني في المنفى. كان إدوارد بين قلة من المثقفين العرب الذين فهموا أن عرفات قد دخل في عملية هي ليست عملية سلام بل استسلام. وقد حذر قادة «م. ت. ف.» بمن فيهم عرفات أسبوعيا وأحيانا يوميا بأنهم قد بدأوا المسار في طريق انهزامية.

في إحدى صباحات كانون الثاني (يناير) من عام (١٩٩٣)، كنا نشرب القهوة في شقته في حي «ريفر سايد»، حين رن جرس الهاتف. وقد دامت المحادثة الحامية على الهاتف باللغة العربية حوالي الأربعين دقيقة. عاد إدوارد ساخطا وحبات من العرق على جبينه، ثم قال:

«سينتهي بهم المطاف إلى حراسة أكبر سجن في العالم، غزة». في الخريف، فكرت بهذه الحادثة في إسلام آباد وأنا أتفرج في التلفزيون على ذلك الاحتفال الحزين في البيت الأبيض وتراجعت مصدوما، كما يبدو أن إدوارد قد فعل، لدى سماعي عرفات يكرر كلمة «شكرا» مخاطبا كلينتون. يسأل إدوارد سعيد «عم يشكر الولايات المتحدة ؟» ثم يستذكر الأعمال الوحشية وأعمال العنف التي أحاطت بهذه الاتفاقية التاريخية.

كان سعيد من أوائل مناصري السلام مع إسرائيل. ولو أن ياسر عرفات استجاب للاقتراح الذي حمله إلى بيروت في خريف عام (١٩٧٨) ومرة أخرى في آذار (مارس) - (١٩٧٩) - وهو يكشف التفاصيل هنا للمرة الأولى - فقد كان ممكنا الوصول إلى تسوية فلسطينية - إسرائيلية معقولة. يعتبر سعيد الاتفاقية الحالية بين «م. ت. ف.» وإسرائيل «استسلاما» من قبل عرفات، ويعرض الأسباب التي تبرر هذا الاعتبار. أترك الحكم للآخرين والتاريخ. وأريد أن أورد هنا مجرد تلك النواحي من اعتراضاته المتعلقة بتشكله الفكري. وتتضمن هذه انهماكه بمسألة الذاكرة، حكاية المضطهدين وبالالتزام بألا يدع أبدا

أسطورة أو وجهة نظر مهيمنة تصبح تاريخا دون معادلها. والمهم على نحو معادل لعمله حسه العميق بالخسارة الشخصية والجماعية، وعيه إلى البدائل الإيجابية والشاملة للأيديولوجيات والبنى والادعاءات الدينية المتعصبة. وخلال عمله كله فإن هذه الموضوعات منظومة على خيطان تربط المعرفة والسلطة وتؤسس الروابط بين الثقافة والإمبريالية. وهو يصنع هذه الروابط دائما بطرق تفتح أمامه بديلا أكثر أهمية وإنسانية: إضافة، ثقافة مقاومة، والوعد بتحرر علماني لا طائفي.

بدأت المفاوضات بين «م. ت. ف.» وإسرائيل في خريف عام (١٩٩٢) في بوسطن قبل أن يجدا راعيا حياديا في أوسلو. ولإسرائيل تاريخ في مجال تصعيد العنف خلال المفاوضات وفترات توقف إطلاق

النار. لذلك كانت الفترة بين تشرين الأول (أكتوبر) (١٩٩٢) وأيلول (سبتمبر) (١٩٩٣) واحدة من «أسوأ فترات الاضطهاد في الضفة الغربية». قتل الكثير من الناس، خاصة الأطفال تحت سن الثامنة عشرة. وطرد (٤١٥) فلسطينيا من وطنهم في انتهاك فاضح للقانون الدولي وتركوا في العراء على الحدود اللبنانية في شتاء قاس مرير. وقد أمضى الناس في المناطق المحتلة معظم هذه الفترة تحت منع التجول، مقطوعين عن العالم الخارجي، بل ومقطوعين الواحد منهم عن الآخر، حيث أن المحتلين كانوا مسيطرين على الطرق وفرضوا منع التجول بالقوة. غزت إسرائيل لبنان مجددا، وهذه المرة بالهدف المعلن، هدف إجبار عدة مئات الآلاف من السكان على التحول إلى لاجئين. ولم تستحق أي من هذه الحقائق الكالحة أي ذكر في الاحتفال الذي جرى في «حديقة الزهور». وبدلا عن ذلك كان هناك استعراض للإمبريالية والأساطير التي تقودها بالقوة، ولم يكن هناك أي تلميح إلى المقاومة. كانت حكاية الفلسطينيين مغلوبة بالمزاعم الإسرائيلية، وهذه المرة بتواطؤ من ممثل فلسطين المعلن.

دعي إدوارد سعيد إلى «البيت الأبيض» ولم يذهب، بل شاهد الاحتفال «المبهرج الرخيص» على التلفزيون: كلينتون أشبه بإمبراطور روماني يحضر ملكين من أتباعه إلى بلاطه الإمبراطوري ويجعلهما يتصافحان أمامه. ثم كانت هناك عروض الأزياء للشخصيات من النجوم.... وكان الأكثر مدعاة للكآبة الخطابات: فقد ألقى رئيس الوزراء الإسرائيلي رابين الخطاب الفلسطيني، إذ كان خطابه مليئا بالألم والقلق الهاملتي والتردد والخسارة والتضحية وهكذا دواليك... أما خطاب عرفات فقد كتبه في الواقع رجال الأعمال وكان خطاب رجل أعمال.

الاتفاقية السيئة سيئة بما فيه الكفاية. لقد ناضل الفلسطينيون واستطاعوا على نحو ما البقاء رغم كوارث عديدة. وقد ينجون من هذه الكارثة أيضا. ولكن فشل عرفات في تقديم معادل لحكاية رابين وأن

يكون شاهدا على آلام شعبه الاستثنائية حركت شيئا عميقا في كيان سعيد العاطفي والفكري. «في الاقتصاد السياسي العام للذاكرة والذكريات التي تتواجد في الثقافة العامة في الغرب، لا مجال للتجربة الفلسطينية في الخسارة» كما قال لبار ساميان وهو يسرد التجربة المسكونة بالأرواح، تجربة زيارته لإسرائيل في عام ١٩٩٢، لأول مرة منذ أجبر شعبه على النزوح من هناك. أحيانا تربكه الذاكرة. لم يستطع تحمل دخول بيته في القدس، الذي يحتله الآن صهاينة مسيحيون، ووقف في الخارج، وراح يشير لأولاده إلى الغرفة التي ولد فيها.

إن شخصا يتمتع بكل هذا الحس العميق بالخسارة يجب أن يكون ذا مرارة، كماهم الكثيرون من الفلسطينيين. ولكن سعيد ليس كذلك، وربما بسبب التزامه الثابت باستكشاف البدائل. وهذا النشدان أدى به إلى البحث عن وفاق مع إسرائيل. بعد حرب عام (١٩٦٧)، كان بين أوائل الفلسطينيين الذين حاجوا بأن الرفض العربي لـــ «الاعتراف بوجود إسرائيل» كان موقفا عقيما. وقد أشار باستمرار إلى إسرائيل باسم إسرائيل، رافضا المصطلح الطقسي «الكيان الصهيوني» على أنه سخيف. اليهود هناك ليبقوا والفلسطينيون هناك ليبقوا، كما قال مرارا، ولا يمكن لأي مقدار من العنف وأعمال الترحيل والطرد والمزاعم أن يغير هذا الواقع. لقد اعتقد بأن الدليل الوحيد عن حالة الحرب الدائمة والعنف الدائم هو السياسة: طرح رؤيا عن فلسطين جذابة للعرب واليهود على حد سواء، وناضل في سبيلها بـــ «نظام تفصيلي» معين. لقد سمعته منذ عام (١٩٧٠)، وسنة بعد سنة، وهو يجادل قادة «م. ت. ف.» بأن السياسة يجب أن تكون الأداة الأساسية للتحرير، وهي تنبع من العمل المتواصل في المجتمع المدني في الوطن وفي الخارج، وأن الصراع ستتم تسويته في النهاية على طاولة المفاوضات وأن «م. ت. ف.» كانت مقصرة إلى حد مؤسف في تحاليلها السياسية ومهاراتها الدبلوماسية. كانوا

يصغون إليه باحترام، وهذا كل ما في الأمر.

وحسب اعتقاده، كان إدوارد أول مثقف فلسطيني يلتقي بإسرائيليين وصهاينة أمريكيين. ومن بين هؤلاء كان «سيمحا فلابان»، أحد قادة «المابام» والذي كتب لاحقا بشجاعة كبيرة وروح عالية حول التجربة الفلسطينية عن الصهيونية. كما كان من بينهم بعض القادة من اليهود الأمريكيين المشهورين: أصبح بعضهم لاحقا من مؤيدي حركة «السلام الآن». لا يوجد بالكاد ناشط إسرائيلي في مجال السلام لم يقابل إدوارد سعيد. كما كان أول مثقف عربي بارز ينتقد بصراحة أعمال العنف الفلسطيني على أنها خاطئة وتعطي نتائج معاكسة كاستراتيجية للتحرير. أحيانا كان يشعر بالوحدة في تلك الأيام، كما يشعر الآن، ولكنه كان سيكتشف أن الآخرين معه.

الروح الخطابية خلال السبعينات والثمانينات للقادة الصهاينة كانت تحبذ المفاوضات المباشرة بين الإسرائيليين والفلسطينيين، السلام على أساس المساواة ونهاية للاحتلال مقابل الاعتراف العربي بحق إسرائيل في الوجود. كانت مذكرة أعمالهم المصرح عنها لا تختلف كثيرا عما يطالب به إدوارد سعيد. فلماذا أصبح «بعبعا» إلى هذا الحد في نظر المؤسسة الصهيونية؟ أحد الأجوبة على هذا مثير للتهكم: إن روحه السلمية وتقييمه الدقيق للصهيونية قد اعتبرا على أنهما تهديد خطير من وجهة نظر المؤسسة الصهيونية. ولكن ما أغضبهم كأشد ما يكون الغضب كان تصميمه على سرد الحكاية الفلسطينية، وتدخلاته الدائمة بـــ «معادل»، ونشدا نه البدائل عن القومية الطائفية المتعصبة.

كل الحركات القومية تنشر أساطير حول نفسها. وتتميز الصهيونية أيضا باختلاق أساطير كثيرة عن فلسطين والفلسطينيين: كانت فلسطين أرضا بلا شعب لشعب بلا أرض، صحراء جعلها الرواد الصهاينة تزدهر بجهدهم، أرضا خرابا يسكنها قلة من البدو المتناثرين، ولاية عثمانية

رجعية تنتظر يد المهاجرين الأوربيين لتحولها الى جنة، أرض يهودية منذ «غابر الأزمان» وهكذا دواليك. أما فيما يخص الفلسطينيين فهم لم يكونوا موجودين. لقد هرب العرب من فلسطين في عام (١٩٤٨) لأن إذاعة القاهرة طلبت منهم الهرب. إن «ما يسمى بالفلسطينيين» أتوا إلى فلسطين من سورية إذ جذبتهم المعجزة الاقتصادية التي قام بها اليهود، الخ. وهذه الأساطير تعد بالمئات.

كان إدوارد سعيد فريدا بين الباحثين العرب من حيث فهمه أن هذه الأساطير نتاج لحاجة أعظم من الدعاية. لقد فهم أهميتها المركزية لنظرية المعرفة لدى الصهيونية. كان من سوء حظ الفلسطينيين أنهم خضعوا لظلم عدو نادر، أناس عانوا هم أنفسهم من اضطهاد طويل وعميق. يقول لبارساميان: «فرادة موقفنا هي أننا ضحايا للضحايا» كان من عذب اليهود الأوروبيين. مدفوعين هم أنفسهم بأفكار وعواطف دينية متعصبة. ومع ذلك قام هؤلاء بسلب شعب آخر وطنه تحت راية أيديولوجيا عنصرية نشدت أن تبني على نحو منتظم وطنا يهوديا مكان ما هو منذ آلاف السنين وطنا فلسطينيا. هنا يكمن أهم تناقض لليهودية الغربية فيما يتعلق بالصهيونية وإسرائيل والفلسطينيين. كان إلقاء اللوم على الضحايا والحط من إنسانيتهم وتحويلهم إلى شياطين يقدم أسهل الحلول للهروب من هذا التناقض.

باهتمامه وبصيرته في استنفار الثقافة واستخداماتها، فقد فهم أن تلك الأساطير في مجموعها كانت جزءا لا يتجزأ من نظرية المعرفة الصهيونية، آلية لإضفاء الشرعية على الدولة اليهودية وكذلك لاإنسانية الحركة الصهيونية تجاه شعب قريب. لقد اعتاد إدوارد سعيد على «الكتابة عن الماضي» وهي عادة مقلقة لأولئك الذين يفضلون ألا يواجهوا الحقيقة. لقد كتب عن ماضي الصهيونية ومؤيديها منذ لحظة تركيزه لوعيه على قضية فلسطين. وكانت أولى مقالاته حول هذا الموضوع

«صورة عربي» (أعيدت طباعتها في كتاب «الصراع العربي الإسرائيلي في حزيران (يونيو) ١٩٦٧: منظور عربي»)، قد ظهرت بعد فترة قصيرة من حرب (١٩٦٧). وبعاطفة وبحدة نصية فضح إدوارد سعيد الخبث والعنصرية اللذين صورت بهما وسائل الإعلام العرب كاريكاتوريا خلال الحرب وبعدها. وبعمل دال على القوة والألمعية ربط الإنجاز السائد الانتشار ضد العرب في الغرب مع اللاسامية التي كان اليهود أنفسهم – ويا للسخرية- يجندونها ضد العرب. أتذكره وهو يصور الفلسطيني كظل لليهودي، وهو ظل لن يختفي إلا في عناق إنساني. بعد ذلك ظل «يكتب عن الماضي»، وتلك كانت بين أكثر كتاباته ألمعية من وجهة النظر الأدبية والسياسية. وأود أن أذكر خصيصا «الصهيونية من وجهة نظر ضحاياها» (في كتاب «قضية فلسطين»)، و«الخروج: قراءة كنعانية» (في كتاب «إلقاء اللوم على الضحايا») و «بعد آخر سماء». وعلي هنا أن أذكر أنه منذ أن بدأ بإيداع التجربة الفلسطينية في الخسارة فيما يسميه «بنك ذاكرة العالم»، فإن مجموعة من المؤرخين التحريضيين الإسرائيليين قد ظهرت لتطرح المزيد من الأساطير، وتأتي الحقيقة على نحو متزايد إلى النور.

أي يهودي يقرأ إدوارد سعيد حول الصهيونية وفلسطين سيعيش تجربة أحد انفعالين: الندم أو الغضب. وعلى نحو مأساوي فإن الغاضبين يفوقون النادمين عددا. قال لبارساميان إنه حين كتب في «هاربرز» عن زيارته لإسرائيل – المواقع الكارثة الشخصية بالنسبة إلي- «فإن كلا من المجلة والمؤلف تلقيا كثيرا من الرسائل الغاضبة المخيفة... ادعى أحد الأشخاص أنه طبيب نفساني مثلا، ووصف لي دخول مستشفى نفساني. اتهمني آخرون بالكذب... وقد وجدت ذلك مثبطا جدا للهمة». إن هذا الموقف، موقف التعصب المقاتل لا يقتصر على كتاب الرسائل المجهولين. إن الإصرار على إنكار منح الفلسطينيين صوتا ومنحهم حق التعبير

الذاتي منتشر جدا. يستطيع كل واحد منا أن يحكي حكاية كبح. يتذكر سعيد كيف أن «جوزيف باب»، المنتج والمخرج النيويوركي الذي كان يلقى احتراما واسعا لالتزامه بالقضايا التحررية قد ألغى عرضا لمسرح «الحكواتي» وهي فرقة من الضفة الغربية. هذا مثبط بالفعل للهمة.

ولكنه كلما كان يواجه الندم فإن إقرارا بالظلم كان يجري. يتأثر سعيد وتتجدد آماله في الوفاق. يتذكر في هذه الحوارات حادثتين من هذا النوع، إحداهما مقابلة مع سائق تاكسي إسرائيلي مجهول الاسم والأخرى مع «ماتي بيليد»، وهو جنرال إسرائيلي متقاعد وبطل حرب. حين زار «بيليد» نيويورك دعاه سعيد إلى الغداء. حين وصف «بيليد» حياته القلقة كناشط في مجال السلام، سأله سعيد: «ماتي، لم تفعل ذلك؟» فأجاب بيليد: «بكلمة واحدة: الندم. أشعر بالندم». يقول سعيد: «كان لذلك تأثير قوي جدا علي حتى أني حين أفكر فيه أختنق غبطة.... لقد ملأني ذلك بالإعجاب والاحترام له». أما سائق التاكسي الذي كان لا بد وأنه ميز إدوارد فقد قال: «أنا إسرائيلي». «حسنا. أنا فلسطيني.» قال الإسرائيلي: «لم أخدم في الجيش». وحين غادر سعيد التاكسي التي أسرعت مبتعدة أحس سعيد بالحزن: «لقد صدمني أنه بمعنى من المعاني كانت تلك لحظة فقدت نحو المستقبل».

ليس بالضبط لأن سعيد تأكد من أن أيا من المقابلتين لن تدخل حيز النسيان. حين يقوم رجلان بعيدان الواحد عن الآخر بكسر حواجز الإنكار والصمت فقد ارتبطا بالشخص الثالث وخلقا - كما يجادل سعيد في حوار آخر من هذه الحوارات - بديلا حقيقيا، تكافؤا بين شخصيتين، وبالتالي إمكانية «أن ينتمي المضطهد (بكسر الهاء) والمضطهد (بفتح الهاء) إلى التاريخ نفسه». وهكذا ترتبط الذاكرة بالندم والخلاص. ولكن الاتفاقية الأخيرة بين الإسرائيليين والفلسطينيين تلغي هذا الديالكتيك وتلزم الفلسطينيين بالبقاء في حالة من اللامساواة والهيمنة الدائمتين.

من الثوابت في أعمال إدوارد سعيد معارضته للأيديولوجيات والمواقف والممارسات الطائفية المتعصبة. والدافع القوي في عمله النقدي هو مقته للقيم العنصرية والانعزالية والانفصالية. وقد كان هذا أساسا مبدئيا في نقده لـ«الاستشراق». وقد بقي كموضوعة دائمة في «الثقافة والإمبريالية». هذا الكره لوجهة النظر الطائفية المتعصبة يشكل إدانته القاسية لما يحدث في الدول العربية وقلقه مما يحدث في السياسة الفلسطينية. خلال العقود التي عرفته خلالها، بقي ملتزما بعمق بتحرير فلسطين دون أن ينسى أبدا محدوديات القومية... رؤيا متمركزة ذاتيا للعالم تصيبنا جميعا بالعدوى.' في هذه الحوارات يعود إلى هذه الموضوعة تكرارا. نقرأ مثلا «حين يصبح الوعي القومي غاية في حد ذاته وتصبح الخاصية العرقية أو العنصرية جوهرا مخترعا إلى حد كبير من أسس القومية... حين يصبح برنامجا لحضارة أو ثقافة أو حزب سياسي، فأنت تعرف أنها نهاية المجتمع البشري».

إن التكريس للعالمية في السياسة والثقافة وعلم الجمال هو بالنسبة لسعيد معادل للخيارات الطائفية. وكما قال مرة فإنها مسألة ما إذا كنت ستدخل التاريخ بذراعين مفتوحتين أو قبضة مضمومة. إن جذور معتقداته العالمية تكمن على ما أظن في الحضارة العربية، في نشأته في القدس والقاهرة، في التراث الغربي لعصر التنوير، وفي التجربة الفلسطينية. إن اهتمامه بالتاريخ العربي قد انصب إلى حد كبير على الثقافة. وهذا يتطلب بالضرورة اهتماما خاصا بتلك الفترات - مثلا القرون من الثامن إلى الحادي عشر للإسلام، والقرون من الثالث عشر إلى الخامس عشر في شمال أفريقيا وإسبانيا، والقرن التاسع عشر وجزء كبير من العشرين في الهلال الخصيب ومصر - حين كانت البيئة الفكرية والجمالية حيوية وعالمية وشمولية على نحو خاص. هكذا يصف سعيد العالم الذي نشأ فيه:

((كل المدارس التي عرفتها صبيا كانت مليئة بأناس من أعراق

مختلفة. كان من الطبيعي تماما بالنسبة إلي أن أكون في المدرسة مع أرمن ومسلمين وطليان ويهود ويونان لأن ذاك كان هو الشرق وهكذا نشأنا. هذه الروح الشقاقية والعنصرية الجديدة التي نجدها الآن هي نتاج جديد نسبيا وغريب تماما علي. وأنا أكرهها.))

إن نقده لإيديولوجيا وبنى وممارسات إسرائيل الانعزالية يضايق مؤيدي إسرائيل، ولكنه يتسق مع وجهة نظره. إن «قانون العودة» يمنح اليهودي الروسي أو الفرنسي أو النيجيري الحق الآلي بالاستقرار في فلسطين بينما يحرم إدوارد سعيد من حقه الطبيعي في الانتماء إلى حيث ولد وعاش أسلافه لقرون قبل خلق إسرائيل. إن السكان العرب في إسرائيل محرومون من حقوق المواطنية المتساوية مع المواطنين اليهود. لقد كتب سعيد مرة أنه حتى نظام الكيبوتز، وهو مؤسسة اشتراكية، شكل من أشكال التمييز العنصري(الأبارتهيد). إن النضال لأجل فلسطين له معنى بالنسبة إليه ضمن هذا السياق فقط. يقول لبار ساميان «إن جوهر نزاعنا يكمن في فكرة أن فلسطين تنتمي كإسرائيل إلى الشعب اليهودي فقط وليس إلى كل الآخرين الذين حدث ووجدوا هناك».

تدين وجهة نظر سعيد إلى حد كبير إلى التجربة الفلسطينية. وهو يحقق عبر المعاناة وتجربة الطرد من الوطن وعيا شاملا، وهذا يقوده إلى نلسون مانديلا في جوهانسبرغ أو «سي. إل. آر. جيمس» في لندن. هناك تواز في هذا بين حياته ومثاليا ته وتلك التي تخص كثيرا من اليهود الأوربيين والأمريكان. لقد استمدت الروح الإنسانية اليهودية من علم الجمال والباطنية اليهوديين ومن أفكار «عصر التنوير» ولكنها تحددت أيضا بتاريخ من المعاناة والاضطهاد. كان الانجذاب اليهودي إلى القيم والإيديولوجيات الشمولية، الليبرالية والاشتراكية، وظيفة جزئية على الأقل من ردة فعلهم ضد أعدائهم الطائفيين المتعصبين. وما لم تتغير إسرائيل كما تغيرت جنوب أفريقيا، فان التاريخ قد يعتبر الأمر مأساة إذ

أن شعبا تشكل على هذا النحو قد أصبح ملتزما بإيديولوجيا الخلاف والتمييز. وإن إدوارد سعيد قلق من أن شعبه قد يختار أيضا طرقا مشابهة.

يظهر «جوزيف كونراد» حتما في هذه الحوارات وكذلك «جين أوستن» و«تي. إس. إليوت» و«ألبير كامو». غالبا ما تساءلت حول تعلق إدوارد بكونراد. لقد كان أول كتبه حول كونراد، كما أن الإشارات إلى كونراد كثيرة في كل أعماله تقريبا. كان كونراد منفيا شأن سعيد، شخصا عبر حدود الثقافة وأتقن لغة شعب آخر، كما فعل سعيد. وهو لا يقول ذلك. ولكنه يتحدث عن دين فكري لكونراد، فيقول لبارساميان إن كونراد كان «واحدا من أهم الشهود الاستثنائيين... على دور الثقافة في الإمبريالية»، وعلى مركزية الأفكار - في صنع إمبراطورية والحفاظ عليها. «لقد فهم كونراد أكثر مما فهم أي روائي آخر» كيف أن الإمبراطورية لم تصب بالعدوى أولئك الناس الذين خضعوا لها فحسب، ولكن الذين خدموها أيضا. لقد فهم كونراد الإمبريالية وقوتها الداخلية وجانبها المظلم. كان يتمتع بـ «حس الدخيل بأن أوربا كانت ذات محتومة بمعنى من المعاني بأن تكرر هذه الدورة من المغامرة الأجنبية والفساد والانحدار.» ولكنه رأى ذلك على أنه أمر لا مفر منه.

لقد ترك الأمر إلى الكاتب الأفريقي والكاريبي والآسيوي ليتخيل البديل ويبدأ بكتابة الماضي. إن إدوارد سعيد هو بين الأوائل الذين دفعوا بهذا البحث إلى ما وراء القومية والدولة، الى ما بعد الكولونيالية، عابرا الحدود ليفسر العالم والنص «بناء على المعادل» كما قد يقول: «كثير من الأصوات تنتج تاريخا».

إسلام آباد / الباكستان
حزيران (يونيو) ١٩٩٤

السياسة والثقافة في المنفى الفلسطيني

١٨ آذار (مارس) ١٩٨٧

دافيد بارساميان: *هلا تحدثت حول خواص كون الأمر قضية (سؤالا)، لأن ذلك يوحي بشيء غير معروف وغير مؤكد.*

إدوارد سعيد: كما أنه يوحي بشيء ما غير مؤكد من حيث وجوده. يطرح الناس قضية (سؤال) فلسطين وكأنهم يقولون: «هل توجد فلسطين أم لا توجد»؟ أعتقد أن هذا هو أهم مظاهر القضية كما يقال، كونها سؤالا. يميل أناس إلى أن الرغبة بإزالة فلسطين من الوجود، رغم أنه كان لها بالطبع وجود في الماضي وهناك الكثير من الناس – ٤,٥ ملايين منهم اليوم – يسمون أنفسهم «بالفلسطينيين»، ولكن اسم فلسطين شديد الاستفزاز في أذهان كثير من الناس. لسوء الحظ، حتى في أذهان الفلسطينيين أنفسهم؛ فقد سبب للكثيرين منا رجفة خفيفة في وعينا حين نتلفظ الاسم لأنه يبدو بالأحرى كاسم مهدد ومتحد. إنه ليس بالاسم الحيادي على الإطلاق.

د.ب. ما هي بعض الاستجابات الثقافية المحتملة كجواب على هذا السؤال؟ لقد رأينا الاستجابات السياسية.

إ.س. بطرق كثيرة فإن الاستجابات الثقافية أكثر أهمية وتنوعا. لقد

مرت فترة هي العقد المباشر بعد عام (١٩٤٨) حين كان الفلسطينيون صامتين ومجهولين جوهريا، أي أنهم كانوا محطمين تماما بخسارة مجتمعهم ودماره حتى أنهم كانوا في حالة من الفراغ تقريبا.

وبدءا من نهاية الخمسينات كان هناك نوع من الانبعاث، الانبعاث الأول، كما يمكنني القول للوعي الوطني الفلسطيني. وقد ظهر ذلك لدى مجموعة من الكتاب والصحفيين والنا شطين في إسرائيل، المجموعة المسماة «الأرض» والتي ضمت شعراء وروائيين، وكما قلت، صحفيين، لم يدم هذا الأمر طويلا، أي مشروعهم الذي كان عبارة عن دار للطباعة وصحيفة

ولكن الإسرائيليين أغلقوه بعد سنتين. ولكن تحت تأثير «الناصرية»، بدأ كثير من الفلسطينيين بالتعبير عن وعيهم الوطني في روايات وشعر ومسرحيات وبالمقالات على الأخص، بكتابة من نوع صحفي واستطرادي. ولكن بعد حرب عام (١٩٦٧) على نحو خاص، فإن الصوت الفلسطيني بدأ يمثل كما بدأ يرمز إلى - من الناحية الثقافية - صوت الحقيقة في عالم عربي كان قد انهزم على نحو جلي، وذلك من قبل نفاقه بالذات وبالأسلحة الإسرائيلية. لذلك فإن المنفى الفلسطيني وشاعر المقاومة كما يمثلهما أشخاص كمحمود درويش وغسان كنفاني وغيرهما، قد حققا نوعا من الوضع الدولي القانوني بفضل المباشرة المذهلة والقوية جدا لصوتيهما وظهور ما كان في النتيجة لغة جديدة، لم تشمل فحسب الذكر الفلسطيني المحروم من حقوقه ولكن الكاتبات من النساء وكتابا من قطاعات من السكان لم تكن تعبر عن نفسها بوضوح تاريخيا: العمال والمعلمون والأشخاص من هذه الفئة.

د.ب. *لذلك تقترح بأن الجهود المبذولة لتصوير الفلسطينيين بوصفهم إرهابيين وبدوا ولاجئين وخاطفي طائرات لم تكن ناجحة؟*

إ.س. أعتقد أنها على المدى الطويل لم تكن ناجحة. لقد حققوا

نوعا من الهوية في أذهان بعض الناس لفترة قصيرة من الزمن كفلسطينيين بكل هذه الصفات السلبية. ولكن كل ما أنت في حاجة إليه هو تجربة مثل غزو لبنان في عام (١٩٨٢) من قبل إسرائيل وعلى الفور تتهاوى كل هذه الكليشهات وتحصل على معنى جديد، معنى مثير للقلق، بالواقع الإسرائيلي، رغم أن الأمر صعب، صعب جدا. إن العمل البوليسي ذا الحدود المنطقية كما هو مسموح وغير مسموح ليس قويا جدا. بعض الحكايات الفلسطينية، بعض التجارب تتغلغل في هذه الشبكة من الصفات السلبية التي لم تشر إليها، وتتبدد هذه الكليشهات.

لن أقول إنها كانت فاشلة. بالطبع هذه الجهود ناجحة جدا إلى المدى الذي يجعل الفلسطينيين معترفا بهم على أنهم كائنات مجردة من إنسانيتها وإرهابيين وهكذا دواليك. ومع ذلك فبالنسبة إلى الناس الراغبين في الاستماع إلى الحكاية، فليس لها أي معنى أيضا. إنه لأمر مدهش لنا، لأولئك منا الذين يتكلمون ويكتبون ويجرون الحوارات، أنه في هذه البلاد [*الولايات المتحدة*] يهتم الناس بالاستماع إلى الحكاية لأنها حكاية لم يطلعوا عليها من قبل.

د.ب. قد يرتبط بهذا فكرة أن الاهتمام بفلسطين تبدو وكأن لها نوعية تتجاوز الأبعاد، أنها ليست مسألة سياسية بسيطة متعاقبة الارتفاع والهبوط.

إ.س. لا، لأن فلسطين نفسها مكان غير عادي واستثنائي جدا. أفترض أن كل الأمكنة استثنائية، ولكن فلسطين أكثر استثناء - ببساطة - من الأماكن الأخرى. إنها لها رنينا توراتيا وهو قوي جدا، وهذا واضح. كما أن لها رنينا تاريخيا. لقد كان لها وجود مستمر، وكانت تعطي الشياطين والقديسين والآلهة وهكذا دواليك، لآلاف من السنين. وبسبب موقعها الجغرافي - جزئيا - إذ أنها تقع في نقطة تقاطع ليس بين الأديان فحسب بل وبين الثقافات. تتقاطع ثقافات الشرق والغرب هناك:

الهيلينية والإغريقية والأرمنية والسورية والشرقية، إذا ما تحدثنا بنحو عام، وكذلك الأوربية والمسيحية والأفريقية والفينيقية: إنها حالة فانتازية. في هذا الخصوص فإن فلسطين نفسها تكون دائما شيئا ما يتحرر من أي صفة ضيقة. وهذا هام جدا: طالما كان الفلسطينيون يمثلون صيغة الجمع ، الوجه متعدد الكوميونات لفلسطين. إن نضالهم ليس مرهونا بحصرية واحتكار ما تعنيه فلسطين، ولكن بالأحرى بتقاطع الكثير من الكوميونات والثقافات ضمن فلسطين، ويشارك الفلسطينيون في غنى فلسطين. إن ما حاربناه هو شعب وإيديولوجيا يقولان إن فلسطين تنتمي فقط لإسرائيل، إلى الشعب اليهودي، وليس إلى كل الآخرين المضطرين إلى التواجد هناك في وضع من التبعية. هذا هو في الواقع جوهر صراعنا مع الصهيونية.

د.ب. في «الاستشراق» *تناقش أنت دور المثقفين والباحثين والخبراء الذين خدموا المخططات الإمبريالية البريطانية والفرنسية في الشرق الأوسط. لقد وفروا الإطار العملي والتبرير ومنطق الغزو والهيمنة. هل هناك طبقة مشابهة تعمل اليوم في مجال القضية الفلسطينية؟*

إ. س. أظن ذلك، خاصة في الولايات المتحدة وإسرائيل. هناك بالفعل ولا تزال في دولة إسرائيل منذ البداية في عام ١٩٤٨ طبقة من المستشرقين أو «المستعربين» كما يسمونهم، وكانت وظيفتهم العمل مع الحكومة على تهدئة السكان العرب الفلسطينيين المحليين والسيطرة عليهم وفهمهم والتحكم بهم. وأنت تراهم في حكومة الاحتلال في الضفة الغربية وغزة، حيث المستعربون، أولئك الأشخاص المختصون بالتاريخ والحضارة الإسلاميين، يعملون مع قوى الاحتلال العسكري كمستشارين. إن «مناحيم ميلسون» الذي كان مدير إدارة الضفة الغربية حتى عام ١٩٨٣ هو في الحقيقة بروفيسور في الأدب العربي. لذلك هناك استمرار مباشر بين الاستشراق الكلاسيكي والإمبريالية الغربية في العالم

الإسلامي وفي أمكنة أخرى، وكذلك بين الاستشراق الإسرائيلي و الإمبريالية في المناطق المحتلة.

في الولايات المتحدة هناك ظاهرة مشابهة. لديك كادر كامل مما يسمى بالخبراء في الوقت الحاضر. وأنا أسميهم «المستشرقين» الذين نكمن مهمتهم في أن يقدموا عبر خبرتهم بالعالم الإسلامي والعربي إلى وسائل الإعلام والحكومة ما أسميه الاهتمام المعادي بالعالم العربي. مثلا كانت هناك ندوة حول الإرهاب نشرت مؤخرا من قبل ناشر رئيسي هنا. وقد قام بتحريره سفير إسرائيل في الأمم المتحدة. وقد كتب ثلاثا من المقالات مستشرقون بارزون حاولوا أن يظهروا أن هناك توافقا حثيثا على نحو خاص بين الإسلام والإرهاب. وهذا النوع من الأمور ما يزال مستمرا.

هناك مجموعة كاملة من هؤلاء الناس، يبلغ عددهم الثلاثين أو الأربعين، يتم استنفارهم كلما كانت هناك أزمة، أزمة رهائن، حادثة خطف طائرة، أو مجزرة من ذلك النوع أو غيره، لإظهار الرابط الضروري بين الإسلام والثقافة العربية والشخصية العربية، كما يشار إليها أحيانا، أو الشخصية الإسلامية، والعنف العشوائي. بالنسبة إلي، فان سوء الحظ الكبير هو أن هؤلاء المستشرقين الذين يتجلى دورهم في فهم وتفسير ثقافة الإسلام والعرب، وهي ثقافة يكسبون منها معيشتهم، لا يتعاطفون معها. إنهم يتعاملون من موقف عدائي ومعارض. في ذلك الخصوص هم عبارة عن موظفين ورهائن بالفعل لسياسة حكومة الولايات المتحدة المعادية بعمق للقومية العربية والثقافة الإسلامية.

هذا صحيح منذ احتك الاثنان الواحد بالآخر. ولا يبدو أن الوضع يتغير، رغم أن هناك عددا من الشبان الأصغر سنا الآن الذين بدأوا بمحاربة هذه الظاهرة الخاصة في أمريكا. ولكن الحقيقة أنك لو نظرت إلى المادة، سترى أن الناس الذين أشير إليهم، هؤلاء المستشرقين، والذين

ربطوا اهتمامهم وعنايتهم وخبرتهم العلمية بالإسلام إلى عربة الأغراض الإمبريالية للولايات المتحدة، هؤلاء لديهم إمكانية الوصول إلى وسائل الإعلام الرئيسية، أي يستطيعون الكتابة في «نيويورك تايمز» الولايات المتحدة «ذا نيو ريبابليك»، الخ. وهناك في آخر الأمر تلك الإدانات الشاملة للعرب في مقالات وبيانات تكتبها مجموعة معادية ليس أمامها ما يعيقها. ليس لدى الأشخاص الذين هم من أصحاب قناعة مشابهة لقناعتي، أو قناعة «تشومسكي» أو غيره، ليست لديهم إمكانية الوصول، أو على الأقل لديهم هذه الإمكانية إنما بشكل محدود جدا، ولكنها لا تعادل أبدا تلك الإمكانية المتاحة لأولئك الآخرين الذين يستطيعون الاستفادة من مصادر «نيويورك» أو «سي بي اس» أو «بي بي اس» دون أي جهد يذكر.

د.ب. قلت حول قضية فلسطين بأن هناك في إسرائيل تعددية في الرأي تفوق كثيرا تلك التي في الولايات المتحدة.

إ. س. هذه حقيقة مذهلة يلاحظها أي شخص يعرف أي شيء عن إسرائيل، سواء كان إسرائيليا أم غير إسرائيلي، عربيا أم غير عربي. في هذا البلد [الولايات المتحدة] يوجد إجماع عجيب في الرأي وحتى إفراط في الحماسة فيما يتعلق بإسرائيل بين اليهود وبين الكوميونة الإسرائيلية المنظمة. وأسباب ذلك تبدو لي معقدة وواضحة.هناك الكثير من الشعور بالذنب يمارس تأثيره هنا، وكثير من الخوف ومن الجهل في المقام الأول. تعتمد إسرائيل اعتمادا كليا على الولايات المتحدة، لذا فإن أي نقد لإسرائيل يفسر فورا من قبل مؤيدي إسرائيل على أنه تهديد للدعم الأمريكي وبالتالي يجب أن يخنق. هناك وعي ضئيل جدا بالقضايا الجوهرية في إسرائيل، أي ما هي القضايا التي ستواجه كل رجل وامرأة وطفل إسرائيلي خلال حياته التي سيعيشها في السنوات العشر القادمة. لا يعرف معظم اليهود الأمريكان إلا القليل عن هذا وليسوا مهتمين بأن

يعرفوا. بالنسبة إليهم فان إسرائيل دين دنيوي، مكان ترسل إليه الأموال. ولكن مشاكل الاضطرار إلى العيش في حالة حصار هي مشاكل ليس على اليهود الأمريكان أن يكترثوا بها، ولذلك فهم يشجعونها لأنها the macho ولأنها الشيء النضالي والصحيح فعله.

يساهم الكثير من الناس في هذا وليس اليهود فحسب. هناك الكثير من الصهاينة من أمثال «جورج ويل» و«ويليام بكلي» ليست لديهم صلة حثيثة بإسرائيل، وقد يكونون في الحقيقة مفطورين على كره إسرائيل، ومع ذلك فهم يمجدونها. لقد برزت خلال سنوات حكم ريغان مجموعة كبيرة من الناس، مثل «جين كيركباتريك» مثلا و«ألكسندر هيغ»، راحت تعتبر إسرائيل على أنها هامة لأمن الولايات المتحدة وتراها حصنا ضد الشيوعية والإرهاب، الخ. لذلك اكتسبت إسرائيل أهمية غير طبيعية أكسبتها نوعا من الحماسة والكرم الشاملين من الولايات المتحدة وأناس من سكانها على نحو لم يسبق له مثيل.

ولسوء الحظ، فان هذا يبدو وكأنه لا يؤدي إلا إلى ضرر إسرائيل في المدى الطويل، وربما حتى في المدى القصير. ولكن مؤيدي إسرائيل غير مكترثين بهذا.

د. ب. *سألت مرة محررا من إذاعة «ناشيونال بابليك راديو» حول تغطيتها الشاملة لحوادث في إسرائيل. في كل مرة يعطس فيها أو يسعل أو يتجشأ شخص ما، فهناك حكاية. وقد اقترحت عليه أن هناك حوادث هامة أيضا من ذلك النوع والأهمية تجري في الجزائر والعراق وسورية ومصر والدول العربية الأخرى وسألته لماذا لا تقدم بها تقارير. وكان الجواب هو الصمت.*

إ. س. هناك صمت لأن من الواضح أن الإسرائيليين هم «مثلنا» [مثل الأمريكيين] ولكن ليس الآخرين. إن لهم لغات مختلفة، وهم أناس مختلفون وبالتالي فهم جوهريا أقل أهمية وأفترض - رغم أن هذا لا

يقال أبدا – أنهم أقل إنسانية منا «نحن» [الأمريكيين]. هذه بالتأكيد هي الحالة. وعلى المرء أن يفيد بالتالي كما فعل «روبرت فريدمان» في عدد صدر مؤخرا من «ماذر جونز» كما أفاد بذلك أيضا «توماس فريدمان» من «التايمز» أيضا :هناك تركيز إسرائيلي هائل إلى حد لا يصدق في وسائل الإعلام في الولايات المتحدة. وبهذا أعني أن هناك اهتماما حكوميا بوسائل الإعلام هذه، كما يقول فريدمان في «التايمز»، فمئات بل آلاف من المقالات تكتب كل سنة في إسرائيل من قبل الجهاز الإعلامي الإسرائيلي وتمرر إلى وسائل الإعلام والصحف والمجلات والتلفزيون والإذاعة في الولايات المتحدة. هذا النوع من الجهد الإعلامي ينجم عنه تغطية سهلة وغير نقدية لإسرائيل إلى حد لا يصدق في وسائل الإعلام. وهي أقل نقدا بكثير وكثير لأي شيء يحدث في إسرائيل.

هذا أمر واحد، والأمر الآخر أن هناك نوعا من الخوف بين الصحفيين في هذا البلد بأنهم لو التزموا بقول الحقيقة حول إسرائيل والعالم العربي، فإن الرد الانتقامي عليهم سيكون شديد القسوة بحيث يخسرون وظائفهم وهكذا دواليك. هذا يتحدث «بول فيندلي» في كتابه «*إنهم يجرؤون على التكلم جهارا*» حول بعض من هذا. وحتى نكون صادقين، أعتقد أن الكثير من هذا مبالغ فيه. أعتقد أن الخوف من الرد الانتقامي هو بحد ذاته مبالغ فيه لأني لا أعتقد أن وسائل الرد كبيرة إلى هذا الحد. لذلك هناك نوع من الجبن الجماعي في وسائل الإعلام.

هناك نقطة ثالثة يجب أن تذكر ألا وهي أن معظم الصحفيين، في رأيي، الذين يكتبون الآن عن الشرق الأوسط ليسوا صحفيين إطلاقا، إنهم لا يقومون بالبحث وهم لا يعرفون اللغات. إنهم يدخلون ويخرجون من مكان ما إن كانت هناك أزمة. وهم يغطون المواضيع المقبولة: الإرهابيون والاعتداءات، الخ. أما البقية فهي لا تغطى بكل بساطة وبالتالي تعتبر غير مهمة وغير موجودة. لا يوجد وعي سياسي بما يجري

في العالم العربي. في هذه اللحظة العالم العربي قدر يغلي بتيارات وتيارات مضادة، هامة ومتفجرة إلى حد استثنائي، ولكن لا يصل إلا القليل من هذا إلى الصحافة لأن معظم الصحفيين كسالى وغير كفؤين بكل بساطة.

د. ب. عنوان كتابك «بعد آخر سماء» مقتبس من قصيدة لمحمود درويش. وأنا مهتم بكونك اقتبست من هذه القصيدة بالذات. يقول: «تطبق علينا الأرض، تدفعنا عبر آخر ممر» هذا يوحي بفهم مزدوج لموت والولادة.

إ.س. كانت تلك قصيدة لفتت انتباهي لأنها نظمت نتيجة لما حدث في عام ١٩٨٢، حين اضطر الفلسطينيون مجددا بعد عام (١٩٤٨) إلى أن يغادروا بلدا كانوا مستقرين به، وفي هذه الحالة فإنه لبنان، في عام (١٩٨٢). للمرة الثانية. ولكن باستثناء أننا نتعامل الآن مع جيل أكثر تسييسا بكثير، وأكثر وعيا بكثير من جيل عام (١٩٤٨). لذلك كان هناك حس بالقدر المحتوم، ومع ذلك، وكما قلت أنت، حس الانبعاث، أي بكلمات أخرى، العبور عبر آخر سماء وآخر ممر يوحي بأنه حتى لو بدا أنه الأخير، فلا يزال هناك طريق آخر، سماء أخرى، أرض أخرى على الجانب الآخر. وبالضبط ذلك الحس المزدوج بالأمر كان ما جذبني إلى القصيدة، وكذلك حقيقة أني أظن أنه بالنسبة لكل الفلسطينيين كان عام (١٩٨٢) الحد الفاصل الكبير في تجربتنا، كما كان عام (١٩٤٨) الحد الفاصل الأول. لقد بدا لي ضروريا وهاما بالتالي أن يقيم الوضع الفلسطيني بعد عام (١٩٨٢).

د. ب. هل هو أمر عنصري أن تتوقع المزيد من اليهود، من الإسرائيليين؟

إ.س. لست متأكدا أني أفهم ما تعنيه؟

د. ب. إذا أخذت تاريخ اليهود وخلق دولة إسرائيل، بسبب تجربتهم

التاريخية مع الاضطهاد والمعاناة والهولوكوست ومعسكرات الموت، هل على المرء أن يشعر أن الإسرائيليين واليهود عموما يجب أن يكونوا أكثر حساسية، أكثر تعاطفا؟ هل هذا عنصري؟

إ.س. لا، لا أعتقد أنه عنصري. كفلسطيني فأنا أبقى مخاطبا نفسي قائلا إني لو كنت في وضع يجعلني أحرز في يوم من الأيام تعويضا سياسيا عن كل معاناة شعبي، لكنت، كما اعتقد، حساسا جدا لإمكانية القيام بإيذاء شعب آخر. وإن واحدة من اكبر الأحاجي بالنسبة لي، وهي لغز عميق كما علي أن أقول، أنه كيف أن قلة، نسبيا بعض الشيء من اليهود والإسرائيليين الذين قابلت، يشعرون، خلاف الإحراج والضيق حين يقابلون فلسطينيا، بحس من الندم والتعاطف مع المخلوقات التي تعاني في كثير من النواحي نفس ما عانوه هم. والذي يقلقني أكثر، أن المخلوقات التي تعاني ما عانته اليهود ولكن الآن بسببهم هم، بسبب ما فعله اليهود الإسرائيليون بالفلسطينيين، يمر الفلسطينيون بما مر به اليهود من قبلهم. لن أنسى أبدا التأثير المدمر تقريبا الذي خلفه بي «ماتي بيليد»، الذي كان مرة جنرالا احتياطيا في الجيش الإسرائيلي، وذلك حين كان في أمريكا قبل ثلاث أو أربع سنوات ودعوته إلى كولومبيا. إنه رجل أحترمه واعجب به كثيرا. كان يصف نشاطاته: رشح نفسه للكنيست. وبعد ذلك انتخب عضوا في الكنيست. تناولنا طعام الغذاء معا، وكان يحكي لي عن نشاطاته. التفت إليه وقلت: «ماتي، لماذا تفعل هذا؟ إنه استثنائي.» قال: «بكلمة واحدة، إنه الندم، أشعر بالندم.» كان لذلك تأثير قوي جدا علي حتى أنني حين أفكر بالأمر أشعر بغصة الاختناق لأن شخصا قال مثل هذا الكلام. لقد ملأني ذلك بالإعجاب والاحترام له، ومع ذلك فإني لا أزال أتساءل لماذا لا يشعر بالندم سوى قلة من الناس؟

د. ب. يقول «ستيفن ديدالوس» في رواية «يوليسيز»: «التاريخ كابوس أحاول أن استيقظ منه». ما الذي يحدث للفلسطينيين حين

يستيقظون من كابوسهم الوطني؟ هل تستطيع التقدم قليلا في المستقبل وتتصور دولة؟ كيف سيكون بعض من نسيجها وأبعادها؟

إ.س. أجد من الصعب فعل ذلك من خلال مصطلحات إيجابية أو سلبية. لا أستطيع إعطاءك مخططا أو خريطة لما ستكون عليه الدولة الفلسطينية الآن لأنني قلق كثيرا حول بعض الأمور السلبية التي قد تتواجد والتي أريد أن أحاذر منها.

مثلا، سأكره أن تبرز دولة فلسطينية من نضال من هذا النوع ضد أعداء من هذا الصنف لتكون ببساطة نسخة كربون عن الدول العربية الأخرى. سأكره مثلا أن تكون مثل لبنان أو العراق. هذا أولا. وثانيا سأكره أن تكون دولة ممزقة بوعي الأقلية، كما نراه الآن في إسرائيل. آمل أن تكون دولة لها معنى أبسط لأمنها ولقيمتها الذاتية. إنها لن تحتاج إلى أن تكون دولة حصار. أعتقد أن هذا هام جدا. وثالثا أود أن تكون دولة لا تتحول إلى دولة أمن بكل المعاني السيئة لتلك العبارة، والتي يتعرض فيها السكان والمجموعات والنساء والأشخاص المحرومين، الخ، إلى التمييز ضدهم. هذه الأمور اكثر إلحاحا على تفكيري من النواحي الأكثر إيجابية، أي حول ما إذا كانت تلك الدولة ستصبح اشتراكية أو رأسمالية، وهكذا دواليك. تبدو لي تلك الأمور على أنها التهديدات الفعلية لأي بقاء سياسي فلسطيني مستقبلي.

د. ب. *لقد كتبت «قضية فلسطين» في بداية الثمانينات.*

إ.س. نهاية السبعينات، فعليا.

د. ب. *هل الفلسطينيون اقرب الآن إلى تحقيق ذلك الهدف أي الدولة المستقلة؟*

إ.س. سأقول بطرق كثيرة: أجل. أعتقد أن معظم الفلسطينيين لن يقبلوا بأقل من ذلك، بينما كانت هناك فترة من الزمن حين شعر معظم الفلسطينيين أنهم لو استطاعوا مجرد البقاء أحياء لكان ذلك كافيا. من

الناحية السياسية سأقول لا على الأرجح، إذا ما أخذنا الوضع في الشرق الأوسط في الاعتبار. وهنا يكمن التناقض: هناك مجموعة قوى على الأرض وفي الجو، كما قد يقال، وهذه تناضل بقوة شديدة ضد تقرير مصير للفلسطينيين، بأيدي الفلسطينيين في هذه اللحظة، حتى أن الاحتمالات لا تبدو في المستقبل المباشر لامعة جدا.

ولكني اعتقد أن علينا أن نتابع التفكير في هذه المسائل على مستويين. أحدهما مستوى الإدارة السياسية التي هي أقوى من قبل، كما أعتقد، لأننا بقينا أحياء بعد خطب شديد في السنوات السبع أو الثماني التي مرت منذ أن كتبت ذلك الكتاب. وعلى الأرض، في الواقع، أعتقد أن التحدي أعظم. ولكني أظن أنه تاريخ هذا الشعب، وبالفعل كل الشعوب، يقول إنه كلما صعب التحدي كلما كان النضال اكثر تصميما. لا أعتقد أن الشعب يستسلم ببساطة ويستلقي ليموت.

د. ب. هل أن صفة كونه محاصرا ومطوقا هي أحد الأسباب التي قد تكون دفعت الفلسطينيين في الشرق الأوسط والولايات المتحدة وفي أمكنة أخرى إلى أن يصبحوا طبقة محترفة تماما؟ هناك الكثير من المهندسين والمعماريين والأساتذة الجامعيين، الخ.

إ.س. اعتقد أن هذه نتيجة طبيعية لحقيقة أن الكثيرين منا جوالون. لقد اضطررنا على الاعتماد ليس على تراكم البضائع وراس المال بل على إدارة المهارات والمصادر كالتعليم والخبرة التقنية ورأس المال الفكري. ونتيجة لذلك، نحن مجموعة جوالة في وعيها وإدراكها ويكمن دوما إحساس بأننا على الحدود الخارجية وهامشيون قليلا في أي مجتمع يعيش المرء فيه. ونتيجة لذلك، أعتقد أن الكثيرين منا لديهم في الوقت نفسه إحساس بالجنوح، بأننا جانحون ولكننا على نحو ما أصحاب امتياز بطريقة ما، أننا نرى الأشياء بطريقة أكثر حدة. هناك نوع من موهبة البصيرة إلى درجة ما هي التي سمحت للفلسطينيين الذين يستطيعون

رؤية المظالم، يستطيعون رؤية سخرية الأوضاع، ويعرفون أن القوانين تصدر في كثير من الدول ضدهم. لقد رأينا هنا في هذا البلد[الولايات المتحدة] كيف هدد تسعة فلسطينيين بالترحيل لأنهم كما زعم اشتروا مجلات تقول إن هدفها نشر الشيوعية في العالم. إنه لوضع يدعو للسخرية إلى حد أنه كان من شأن «سويفت» أن يستمتع به. إنه هذا النوع من الحس الذي طوره الفلسطينيون مع مر الزمن، وأعتقد أن روح الفكاهة الفلسطينية، التي تميل إلى أن تكون مرة وقوية، هي حادة جدا رغم ذلك في مدركاتها.

د. ب. *مجددا أكرر بيتي محمود درويش: «أين سنذهب بعد آخر حدود، أين ستطير الطيور بعد آخر سماء؟»*

إ. س. أجل بالضبط. هذا هو معنى معرفة أننا نبدو وكأننا على آخر حدود على الإطلاق وآخر سماء، وأنه لا شيء بعد هذا، وأنه محكوم علينا بالهلاك، ومع ذلك، نسأل السؤال: «إلى أين نذهب من هنا؟» نريد أن نرى طبيبا آخر. لا يكفي مجرد أن يقال لنا إننا موتى. نريد أن نتابع الطريق.

الاستشراق مجددا

٨ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٩١

دافيد بارسامیان: أهلا في أرض «أوز». لا أعرف إن كنت قد سمعت بالتقارير الصحفية الأخيرة، ولكن الكونغرس والرئيس قد أعلنا عن منح مليارات الدولارات ككفالات قروض للمساعدة على بناء بيوت جديدة وإعادة توطين ربع المليون فلسطيني ممن كانوا يعيشون في الكويت واضطروا الآن للخروج إلى الأردن. كنت أتساءل إن كنت قد سمعت بذلك النبأ. هل تستطيع تثبيته؟

إدوارد سعيد: لا، لا أستطيع. لم أسمع به.

د.ب. هل تراه بالأحرى كمزحة؟

إ.س. أجل. هذا أمر غير وارد إطلاقا، لأنه يبدو لي أن الولايات المتحدة كانت تشن حربا بطريقة متعمدة على المدنيين الفلسطينيين في السنوات الأربعين الماضية. لذا فإن أي تغيير من هذا النوع سأراه كنوع من «جنية السن» و«الساحر أوز» و«بوليانا» و«السيد واحد».

د.ب. لاشيء يتغير....

إ.س.... بل هذا هو الشيء نفسه.

د.ب. فلنتحدث عن صور ورموز بداية عقد الثمانينات ومقارنته مع بداية عقد التسعينات. لقد صدرت النيوزويك وعلى غلافها قصة في آب (أغسطس) من عام ١٩٩٠، بعد الغزو العراقي للكويت بفترة قصيرة. وقد

قالوا إنه في الشرق الأوسط «الخيانة هي حليب الأم لرجال السياسة».

إ.س. إنه يعتبر مجتمعا يمثله أفضل تمثيل قصص تدور حول العقرب الذي يلدغ جملا يعبر النهر. وأول الصور التي ترد إلى الذهن هي صور من القرن التاسع عشر جوهريا. والفكرة كلها هي فكرة الخروج عن القياس والمفارقات التاريخية تطبق على افضل نحو على المزاعم الحالية عن الشرق الأوسط. إن كل المفردات المتعلقة بالاستشراق الرومانسي جزئيا والمضاد للرومانسية جزئيا لازالت حية وفي حالة جيدة. ويبدو أنها استعيرت بكاملها دون تغيير. تجدها مثلا في أعمال «دافيد برايس جونز» الذي ألف كتابا سماه «*الدائرة المغلقة: تفسير العرب*»، وفيه يقر هو على ما أذكر بأنه لا يعرف العربية وأنه ليس باحثا. ولكنه يتجرأ على طرح تعميمات كبيرة على نحو هائل حول الحضارة العربية على أنها حضارة العيب، حضارة العنف، كعالم منحرف وحسي وغير ممكن الثقة به إطلاقا. كانت هناك مراجعة لكتابه بقلم «كونور كروز أوبريان» في صحيفة إنكليزية رئيسية بعد صدور الكتاب بوقت قصير يقول فيها: هاهو أول رجل يقول الحقيقة حول العالم العربي. وقد نشر هذا مجددا في عدد صدر مؤخرا من «ذا بابليك انترست» ثم أعيد نشره لاحقا في أمكنة أخرى. هكذا هم العرب. وهكذا نمضي. لاشيء قد تغير.

د.ب. هل تجد هذا مخيبا للآمال؟

إ.س. بالنسبة إلي فهذا هو المتوقع من مثل هؤلاء الناس. ولكن خيبة الأمل والحزن يأتيان من أن كل الجهد الذي يبذله الباحثون العرب العديدون والكتاب والمفسرون للعالم العربي، الذين هم أنفسهم محاربون ضد فساد وقسوة الأنظمة المختلفة، كل هذا الجهد يبدو وكأنه لا جدوى منه. إن ما يدعو إلى السخرية في الأمر أنه رغم كل هذه الهجمات المشروعة على النظام السياسي في العالم العربي، والذي هو فاسد

ومتعفن ومنحرف، إلا أنه ولا واحد من هؤلاء الخبراء الغربيين، دون أي استثناء أستطيع تذكره، قد سبق له أن شخص أو تماهى مع كفاح ضمن العالم العربي ضده [ضد هذا النظام السياسي]. وهناك معارضة كبيرة.

فمثلا، معظم النخبة بين الكتاب والصحفيين والفنانين والمثقفين والأكاديميين في العالم العربي هم في صفوف المعارضة الآن. لا يستطيع الكثير منهم أن يكتب أو يتكلم، أو هو قيد الاعتقال الخ. لكن لا يذكر أحد شيئا عن ذلك على الإطلاق. الحركة النسائية وحركة حقوق الإنسان، كل هذه نضالات مستمرة في كل بلد، رغم أنها مختلفة تماما في مصر مثلا أو الأردن. ولكنها لا تذكر إطلاقا. وفوق ذلك كله، وعلامة هذا كله، أن القليل جدا هو الذي يذكر عن النضال الفلسطيني في سبيل حرية التعبير وحرية الاجتماع وحرية تشكيل الأحزاب السياسية، الخ. لذلك تتساءل ما هي القصة؟ والحزن الحقيقي يأتي حين تدرك أن كل هذا الجهد لم يترك تأثيره عليهم. فهم يكررون ببساطة ما يقولونه. وحتى نستخدم عنوان كتاب «دافيد برايس جونز» نقول هذه هي «*الدائرة المغلقة*» وليس العالم العربي حيث يجري الكثير.

د.ب. لقد وصفت قضية فلسطين على أنها «غير ملائمة» للصحفيين والأكاديميين. أود منك أن تتوسع في هذا. هؤلاء ليسوا أناسا يسعون وراء المناصب، وغير خاضعين للضغط السياسي ممثل اللوبيات. لماذا إذن هي غير ملائمة؟

إ.س. من الصعب الإجابة. أعاني أنا من ذلك منذ ثلاثين سنة على الأقل في هذا البلد. ويبدو انهم ينقسمون إلى ثلاث فئات. هناك الكذابون الصريحون الذين يقولون إنه ليس هناك فلسطينيون، والقضية الفلسطينية لا وجود لها هكذا ببساطة. لقد «غادروا» في عام (١٩٤٨) لأنهم أمروا بذلك أو أنهم لم يكونوا هناك فعلا في الأصل، فقد جاؤوا من دول عربية أخرى في عام (١٩٤٦) ليغادروا في عام (١٩٤٨). هناك

حكاية كاملة وراء هذا. أي بعبارة أخرى «إنهم» شتات من الناس الموجودين في الضفة الغربية وغزة. إنهم عرب من فلسطين ولكنهم ليسوا فلسطينيين. هذا هو خط الليكود.

والخط الثاني يتبناه «المفكرون الطيبون». إنهم يتبجحون ويهذرون ويستمرون في الحديث مطولا حول جنوب أفريقيا والديموقراطية الليبرالية في بولندا وتشيكوسلوفاكيا وهنغاريا والصين ونيكاراغوا. إنهم ديموقراطيون ليبراليون ولكنهم لن يقولوا أي شيء حول فلسطين إطلاقا. إنهم لن يقولوا أي شيء وهذا هو كل ما في الأمر.

ثم هناك الفئة الثالثة، أولئك الذين يتحدثون عن فلسطين ولكنهم يمنحون إسرائيل استثناء. إذا طرحت عليهم القضية وقلت حسنا، هناك كل هذا بالإضافة إلى جنوب أفريقيا ونيكاراغوا و فيتنام والاتحاد السوفييتي و«ساحة تيانانمن»، هناك فلسطين، فيقولون: أجل، هناك فلسطين، ولكن إسرائيل ليست مثل الطرف الآخر. عندها تصبح المسألة في الفئة الثالثة، من هو المسؤول أن لم تكن إسرائيل؟ إن لم يكن هناك ظلم فظيع تقوم إسرائيل بإدامته بدعم من دولارات الضرائب الأمريكية والليبراليين الأمريكان؟ فمن هو المسؤول؟ في النهاية يقولون إن الخطأ يقع على الفلسطينيين. إنهم مسؤولون والعرب الآخرون مسؤولون. ولكن الأمر كله بالنسبة لي هو عدم الملاءمة، أي أن هناك دون شك مسؤولية صهيونية إسرائيلية مترعة بالإثم وفظيعة. وهذه تتضمن أكثر العلاقات تعقيدا وإحراجا مع الهولوكوست ومعاداة السامية، لأنك لا تستطيع أن تقول إن هذا كله عبارة عن سبيل ليحصل الناجون من الهولوكوست على تعويضات، أو هذا ما يدين به الفلسطينيون لهم. لا تستطيع بالفعل أن تقول ذلك. ولكنه متضمن بطريقة ما من الطرق، ولكن إذا لم تقل ذلك، ولم تحاول أن تدافع عن ذلك الموقف، عندها «يكونون» في النهاية مسؤولين. لا أقول إن الفلسطينيين أبرياء، ولكن ما نتحدث عنه هو تدمير

مجتمع في عام ١٩٤٨ والاضطهاد المتعمد المبرمج للفلسطينيين منذ ذلك الحين، وخاصة في السنوات الأربع والعشرين منذ احتلال الضفة الغربية وغزة في عام (١٩٦٧)، حيث هناك هجوم يشن على هوية الفلسطينيين: هويتهم الوطنية والثقافية والسياسية وحتى الوجودية وذلك بالتدمير المتواصل المنتظم لنا. لذلك هي «غير ملائمة» بالطبع.

د.ب. في حوارك في ' المدرسة الجديدة ' مع «ميرون بنفستي»، النائب السابق الإسرائيلي لرئيس بلدية القدس، وفي مناسبات أخرى أيضا، فإنك تلح على أن هناك اعترافا إسرائيليا بـــ «الظلم»، كما تسميه، الظلم الذي ارتكب ضد الفلسطينيين. لماذا هذا الأمر هام جدا؟

إ.س.: لأن ما قتلنا في السنوات الثلاثين أو الأربعين الماضية هو الإنكار وحقيقة انهم غير مسؤولين لذلك نبدو وكأننا أيتام، كأنه ليس لدينا أصول، ولا حكاية، ولا سلالة كشعب. إن سلالتنا لا يمكن فهمها في رأيي إلا إذا اعترف بما فعلته إسرائيل مباشرة بنا. لذا فإن ما نتحدث عنه هو الاعتراف بتاريخ. هذه هي المسألة الأولى. أما الثانية فإنها تضعنا على الأقل على قدم المساواة مع الإسرائيليين، لأننا اعترفنا بوجودهم. لقد قلنا لهم أنتم هنا. لقد دمرتم مجتمعنا وأخذتم أرضنا، ولكننا نعترف بكم كأمة في النهاية. نقول لكم إننا نريد أن نعيش في سلام معكم بالصيغة التالية: نريد دولة فلسطينية وتقرير المصير لشعبنا في الضفة الغربية وغزة. يمكن لكم أن تملكوا دولتكم وتقرير مصيركم لشعبكم في إسرائيل ما قبل عام (١٩٦٧). ولكنهم لم يعترفوا إطلاقا بهذا لنا. لم يقوموا بذلك أبدا كشعب، أنا لا أعني الأفراد الذين يقولون نعم، أجل ليست لدي مشكلة، ولكنهم لا يقولونها علنا. في السنوات العشر التي سبقت عام (١٩٨٨) حين كان الإسرائيليون يأتون ويتحدثون إلي ويقولون إننا نريد اعترافا منكم؛ وسيكون مفيدا على نحو رائع إذا قبلتم القرار رقم (٢٤٢)، إذا اعترفتم بإسرائيل. عندها سيتغير كل شيء.

حسنا لقد فعلنا ذلك ولم يتغير شيء. لقد ساءت الأمور. لذلك أظن أنه لأجل هذين السببين نحتاج إلى الحصول على الاعتراف. الإنكار والصمت وفي النهاية لامبالاة اليهود الأمريكيين على نحو خاص، كل هذا كان سيئا جدا جدا لنا.

د.ب. هل سيعطي ذلك الاعتراف الإذن بسرد الحكاية كما تسميها؟

إ.س. أعتقد أنه سيكون ذا تأثير هام. عندها سننتمي إلى التاريخ نفسه. إن قدرتنا على سرد حكايتنا ستتضاعف بمعدل (١٠) مرات. أعتقد أنه من المهم أن نفهم أنه في الغرب شن هجوم منتظم على أي محاولة لسرد تاريخ فلسطيني من قبل الإسرائيليين. من ناحية فإنه في الضفة الغربية وغزة، ولأن الناس في حاجة شديدة إلى الأمن، فإن الفلسطينيين وحتى يعيشوا من يوم إلى آخر، فقد كان آخر شيء يريدون فعله هو أن يقصوا حكايتهم. إنهم يريدون البقاء على قيد الحياة فحسب. وينطبق هذا على الفلسطينيين في لبنان وفي أمكنة أخرى حيث هم معرضون للهجوم. مشكلة البقاء هامة جدا إلى حد أنك لا تعود تفكر من خلال لغة الحكاية، بل من خلال البقاء حيا حتى اليوم التالي. دوليا، وكلما جرت محاولة فلسطينية لسرد حكاية، لوضع قصة فلسطين التي قوطعت وصلتها بقصة إسرائيل بأسلوب دراماتيكي ممكن التحقيق،كلما جرى هجوم منتظم عليها. لم يظهر حتى الآن أي فيلم روائي هام عن فلسطين. وكلما كان هناك تصوير درامي، مثلا جولة لمسرح الحكواتي، فقد كان يجابه بالنقد والإيقاف، وحدث ذلك آخر مرة في عام (١٩٨٨) حين ألغى «جو باب» في مسرح «بابليك ثياتر» العقد [مع هذه الفرقة]. وكلما ظهر فيلم على التلفزيون أو فيلم وثائقي، مثل فيلم جوان تراوت: «أيام الغضب» على شاشة «بي بي اس»، والأمثلة عديدة، هناك دائما الحاجة لتقديم مناقشة عامة. في «معهد الفن المعاصر» في بوسطن قبل أسابيع قليلة كان هناك عرض لسلسلة من أفلام الفيديو الوثائقية حول

فلسطين تدور حول الحوادث الأخيرة. وقالوا إنهم سيوقفون العرض ما لم تكن هناك مناقشة عامة مع «الجانب الآخر». لذلك نحن دائماً الجانب الآخر للجانب الآخر. واعتقد أن هذا كان من شأنه أنه جعل الفلسطينيين مشوشين، وفي كل مرة أذهب واتحدث فيها للعموم، كما افعل عادة، فإن عليّ أن أحكي الحكاية من البداية. ثانياً، لقد جعل هذا الفلسطينيين مشوشين ولا إنسانيين. أنت تحصل على الانطباع بأنك لا تتحدث فعلا إلى شعب له تاريخ. وهذه أيضاً سياسة متعمدة في عصر الاتصالات والعصر الذي سماه «تشومسكي» بعصر «تصنيع الموافقة». هذا حمل ثقيل جداً علينا، وليست لدينا الكوادر. معظم أفراد شعبنا لا يعيش في الغرب. لذلك فإنها لمهمة صعبة جداً القيام بإزالة هذا الحاجز.

د.ب. ما هو تأثير الفلسطينيين والشعوب المستعمرة [بفتح الميم الثانية]الأخرى، من هذه الناحية، لأن تواريخهم تدفن من قبل القوة المسيطرة؟ ما هي الاستعارة الجيدة الممكن استخدامها؟ هل ستقوم بـــ «نبش» ذلك التاريخ؟ كيف يمكن استعادته؟

إ.س. أعتقد أن أهم الأمور المتعلقة بالتاريخ لن تكون نبشه بل تقديمه، النطق به، تركه دون هجوم مستمر على التكلم بذلك التاريخ، وعلى مصداقية الرسول. أعتقد أن الاستعارة هي الإخراج بالمعنى الدرامي. هذا ما أشعر به أكثر من أي أمر آخر، أن هؤلاء هم الناس الممكن تمثيلهم. غياب الحكاية - في رأيي - قد جعل ممكناً حصول هذه الحالة التي تشبه حالة من حالات «رحلات غاليفر»، حيث في مباحثات السلام المتوقعة لا يستطيع الفلسطينيون تمثيل أنفسهم. بل يستطيعون فقط أن يمثلوا أنفسهم عبر فلتر الإنكار الإسرائيلي والتواطؤ الأمريكي. لذلك فإن الشروط مصادرة. ليس فقط أنك لا تستطيع أن تكون من شرقي القدس. أنت لا تستطيع أن تكون من الضفة الغربية وغزة. لا يمكن أن تكون قد أقمت صلات مع «م.ت.ف.» لا تستطيع أن تكون

مرشحاً من قبل «م.ت.ف.» لا تستطيع أن تعرف نفسك على أنك تعمل بتوجيهات «م.ت.ف.» لا يمكنك حتى أن تكون قد شاهدت أحداً من «م.ت.ف.» لا يمكنك أن تكون مستقلاً: عليك أن تكون جزءاً من الوفد الأردني.لا يمكن أن يكون لك علم. لا تستطيع التحدث عن نفسك. هذه شروط لم يسبق أن سمع بها أحد في المفاوضات الدولية بين الشعوب، ومع ذلك قبل الأمريكان بها لأن الإسرائيليين أرادوها. إذن فالفكرة هي أن مسألة تمثيل الشعب الفلسطيني مكافئة لإدراكهم كبشر. لذلك إذا منعت تمثيلهم ليس عليك أن تدركهم كبشر. لذلك وحتى اليوم فإن الإسرائيليين من الليكود وشامير على نحو خاص يشيرون إلى الفلسطينيين على أنهم «غرباء مقيمون أو سكان». ليس لهم تاريخ في فلسطين، لقد سئل شامير في الخامس من أيلول (سبتمبر) حين أُجري معه حوار حول الذكرى الخمسين لإنشاء عصابة «شتيرن»، فقال إن الإرهاب مقبول إن كان لأجل قضية عادلة. سأله أحد الصحفيين عن الإرهاب الفلسطيني فقال: قضيتهم ليست عادلة. «انهم يقاتلون لأجل ارض ليست أرضهم». إذن كل هذه القضايا تتعلق بالتاريخ.

د.ب. وأيضاً فإن إحدى الأساطير الفاعلة في وسائل الأعلام الرئيسية في الولايات المتحدة، على الأقل، هي أسطورة «الفرص الضائعة». فالفلسطينيون لديهم دائماً هذه الموهبة في.....

إ.س. لقد كان أبا إيبان هو من بدأ بهذا. لقد سألتني إحدى الصحف اليومية الأمريكية الرئيسية حول هذه العبارة، وقلت إنها سبّة عنصرية. لأننا بالطبع فوتنا فرصاً. وكل شعب يفعل ذلك. ولكن أن نُعرف بأننا الشعب الذي لم يفوت مرة الفرصة ليفوت فرصة يعني القول إننا حمقى على نحو مميز وأن ذلك موجود في جيناتنا، وهذا هراء. لقد جازفنا كثيراً وقفزنا على الفرص أكثر مما فعله أي من الفرقاء الآخرين في الشرق الأوسط، بل واكثر من الإسرائيليين بكل تأكيد في هذه

الناحية، وهم الذين يبدون وكأنهم يتجهون إلى اليمين دون نهاية. إذن هذه سبة غير مقبولة مبنية على افتراضات عنصرية.

د.ب. هناك عنصر مكون آخر هو آموس عوز، الروائي الإسرائيلي، الذي يتذمر في «ليبراثيون» من «أن الفلسطينيين كانوا دائماً على الجانب الخطأ: هتلر، عبد الناصر، الاتحاد السوفيتي ثم صدام».

إ.س. آموس عوز شخصية مثيرة للاهتمام. إنه جزء من هذه الشخصية الإسرائيلية المركبة المقبولة ذات الشعر الأشقر التي تظهر في الغرب و تتحدث إلى بلدية همبستد ومجموعات الكتاب في نيويورك. لديه تلك النظرة المتوّجعة لشخص يبحث عن حل، لأن – كما يقول الناس من أمثاله – الاحتلال سيء لروحنا وانظروا ما الذي يفعله بنا. لا يهم ما يفعله للفلسطينيين الذين يموتون ويُضربون ويُعذبون، ولكن الأمر أسوأ بالنسبة لنا لأن أرواحنا في خطر. آموس عوز، كما يبدو لي، نموذج أصيل للدكتور جيكل والمستر هايد. سيقول جملاً مثل: على الاحتلال أن ينتهي، نحن ضد الهيمنة على شعب آخر؛ وفي الوقت نفسه يطرح آراء حول الفلسطينيين توحي بأنهم، كما يقول، أسوأ حركة وطنية في التاريخ وأكثرها شرورا .لقد قال ذلك فعلا. هناك خاصية شيزوفرينية في ذلك حيث انه للحفاظ على مصداقيتك كليبرالي في الغرب عليك أن تهاجم أولئك الناس بالذات الذين تضطهدهم وتلقي اللوم عليهم. هذا بالضبط نسخة طبق الأصل عن حجج اللاسامية ضد اليهود، كما كانت بامتياز في القرن التاسع عشر والقرن العشرين. بالضبط.

د.ب. أنت الناطق الرسمي الرئيسي، سواء أحببت ذلك أم لا، في الولايات المتحدة للحركة الوطنية الفلسطينية. ومع ذلك اشعر في عملك نوعاً من تكافؤ الضدين، من مشاعر مختلطة حول القومية نفسها. مثلاً كتبت قائلاً: «الأفضل أن نستمر في ترحالنا، كما أعتقد أحياناً، من سماع تصفيقات مصاريع عودتهم الرهيبة المجلجلة، العنصر الدنيوي

المقترح وليس تناظر الخلاص». عمن تتحدث هناك؟

إ.س. أعتقد أني أتحدث عنّا نحن على نحو رئيسي. أعتقد أن الفلسطينيين نوعان الآن. فمن ناحية هم حركة مستقلة، يغذيها نوع من الإيديولوجيا القومية، وهي شكل مقاومة الاضطهاد. وبهذا المعنى فكيف لي ألاّ أدعمها ؟ فأنا جزء منها. ولكن فيها كل محدوديات القومية، وخاصة تلك الرؤية ذات التمركز الفلسطيني والتي أصابتنا كلنا بالعدوى. هناك نوع معين من رُهاب الأجانب تتعلق بها، شوفينية هي جزء حتمي من أي وطنية مقاومة. لذلك فنحن هذا من ناحية، وهي استجابة إلى حد ما وليس بالكامل لضغوط الاضطهاد الإسرائيلي. والناحية الأخرى أننا حركة منفى. وأنا اكثر شعوراً بالراحة بكثير في هذا. المنفيون، إلى درجة ما كالأرمن بعد عشرينات هذا القرن، أولئك الذين قدموا إلى الغرب. تستطيع أن تسميهم الوطنيين المثقفين. ولكن في حالتنا، وبسبب أن الاحتكاك مع العالم المحيط، العالم العربي، لا يزال احتكاكاً كبيراً فالأمر ليس كذلك بالضبط. ولكن الوجود في المنفى هو بالفعل احتلال دائم لأكثر من نصف شعبنا. لأول مرة في تاريخنا، فإن ٥٥ ٪ من الفلسطينيين يعيشون خارج ارض فلسطين التاريخية. بالنسبة لهؤلاء الناس، يبدو لي أن علينا أن نبحث عن صيغ جديدة من المجتمع وصيغ جديدة من الوجود غير مبنية على الحنين إلى الوطن، والتوق وأحلام العودة، والتي هي حقيقة فينا كلنا. لسنا في المرحلة المناسبة بعد حيث نستطيع التعامل مع ذلك بالكامل. إنها تجربة مأساوية جداً والنتيجة هي أننا نهذر. أحياناً نحن جزء من حركة الاستقلال. أحياناً نأخذ منفانا بجدية ولكن م.ت.ف. التي تمثل كل الفلسطينيين سواء أحببنا ذلك أم لا، لها شأن كل الحركات الوطنية أرثوذكسيتها الخاصة بها، وخطها الرسمي وقد كنت أحياناً شديد الانزعاج من ذلك، وفي الوقت نفسه الذي أدعمها بشكل واضح. واعتقد أن هذا يعطيك لمحة عن مدى الصعوبات.

د.ب. في «بعد السماء الأخيرة» اقتبست من «ليدا والبجعة» من تأليف «ييتس» ما يلي: «كانت عالقة جداً، ومسيطرا عليها إلى ذلك الحد بالدم الوحشي للهواء،حتى أنها راهنت على معرفته بقوته قبل أن يستطيع المنقار اللامبالي أن يدعها تسقط». من هي «ليدا» في هذا التمثيل التصويري؟

إ.س.: الفلسطينيون أو الضمير الفلسطيني، والذي هو بمعنى ما قد تعرض للاغتصاب من التاريخ كما اغتصبت ليدا من قبل زيوس متخفيا بشكل بجعة ذكر. توحي اليّ ذكرياتي عن أيامي الباكرة في فلسطين، عن صباي، عن السنوات الاثنتي عشرة أو الثلاث عشرة من حياتي قبل أن أغادر فلسطين، ربما بسبب الإدراك المتأخر والحنين الاستعادي، توحي اليّ هذه الذكريات بمحاولة تهدف إلى أن تكون محجوبة. كلنا كنا نحاول أن نحجب عن أنفسنا الحقيقة الواضحة، أن المكان كان يستلب منّا وأنه سيكون هناك قتال بيننا وبين المستوطنين القادمين من أوربا. ثم استيقظنا في عام (١٩٤٨) على الواقع. لقد طُردت عائلتي بكاملها. من الممتع التحدث عن المعرفة والسلطة. هل تستطيع أن تلبس المعرفة قبل أن يدعك المنقار اللامبالي تسقط من تلك السلطة، سلطة ذلك المصدر؟ لقد استغرق مني الأمر خمسة وثلاثين عاماً تقريباً حتى أدركت ذلك، رغم أني كنت واعياً به. خلال اشهر، فإن أسرتي من ناحية أمي وناحية أبي، كل أولاد بنات العمومة والخؤولة والأجداد والأعمام والأخوال والعمات والخالات، الخ، كلهم طردوا من فلسطين في عام (١٩٤٨). الكثيرون منهم، وبالتأكيد أولئك الذين ينتمون إلى الجيل الأكبر سناً، لم يشفوا أبداً من تلك الصدمة.ولدى الكثيرين من أبناء الجيل الأصغر سناً ترى المشاكل تتكرر طبق الأصل: السيكولوجية والاقتصادية منها والمشاكل الأخرى تتكرر أيضاً.

ولكن السؤال الكبير بالنسبة إليّ كمثقف فلسطيني هو التساؤل عمّا

إذا كان هناك تاريخ متراكم يصان في شعبنا أو إذا كنا محكومين بالمرور بالتجربة نفسها مرة إثر أخرى. تستطيع أن تقدم الحجة، كما قدمتها أنا في أيامي الأكثر سواداً، أنه منذ عام (١٩٤٨) وحتى الوقت الحاضر كان هناك خطّ متواصل من التجريد من الأملاك. لم يحدث أي تغيير في ذلك الوضع. لقد أخذ الاسرائيليون باستمرار المزيد ثم المزيد من أراضينا، وهم يقومون بذلك حتى ونحن نتحدث الآن. لذلك فالسؤال هو: لماذا لم نستطع وضع حد لذلك؟ لمَ لمْ نتمكن من أن نتعلم من تجارب الجيل السابق الذي واجه هذا النوع من التجريد من الأملاك؟ لماذا لم نتمكن من صنع تاريخ من نوع مختلف؟ لم نتمكن.

د.ب. لست فاهماً بوضوح بعد «المنقار اللامبالي». لقد قرأت عنه شيئين. أحدهما إنه القوة الإمبريالية نفسها، أو هي الحركات القومية.

إ.س. كلاهما. لا أريد أن أؤكد التناظر الدقيق مع القصيدة إلى حد بعيد، ولكنك تستطيع أن تقول إنها التجربة مع القومية. هذان هما الأمران اللذان يخطران للذهن. ولكنها أيضاً التجربة مع تاريخك نفسه. وبمعنى من المعاني، فإن تدخل ذكر البجعة في حياتها هو دخول في التاريخ. أنت الآن جزء من حركة القرن العشرين، حركة الإمبراطورية وإزالة الاستعمار ونضالات التحرير والمقاومة والقومية الناجحة. كان لدينا جزء من هذا. عليّ أن أقول لك إنه بعد أن عدت من جنوب أفريقيا كان لديّ حسّ أكثر صحة عن كيف أن الحركة الوطنية الفلسطينية، على الأقل في السبعينات وبداية الثمانينات، كانت قادرة على نحو فريد فعلاً في العالم العربي على إدخال الفلسطينيين إلى تجربة القرن العشرين في مجال الاستعمار، بسبب علاقتنا مع كل هذه الحركات. لقد قال لي مانديلا في جوهانسبرغ في أيار (مايو) الماضي: «لن نتخلى أبداً عن الفلسطينيين. أولاً لأنها قضية مبدأ وثانياً بسبب مساعدتكم لنا.» وبينما كانت حركة «المؤتمر الوطني الأفريقي» في أسوأ لحظاتها في الستينات

والسبعينات، فقد كانت تتلقى المساعدة منا ومن الجزائريين وغيرهم. وكان ذلك صحيحا بالتأكيد فيما يخص «سوابو»، ونيكاراغوا وفيتنام وإيران وكل حركات المقاومة كانت تتلقى مساعدات هائلة من الفلسطينيين في بيروت عادة. لذا يوحي هذا بفهم لدورنا في التاريخ، أننا لسنا مجرد شعب بريء رعوي، وأننا جزء من هذه الحركة الكبيرة. أعتقد أن هذا إنجاز تاريخي هام، أن يعرف ذلك. ولكن إلى أين سيأخذنا هذا، فهذا سؤال آخر.

د.ب. ولكن التجربة الفلسطينية فريدة جدا بالمقارنة مع الشعوب الأخرى التي استعمرت. مثلا جاء البلجيكيون إلى الكونغو. سيطروا عليها. استولوا على الألماس. ثم تخلوا عنها. غادروا البلد. هذا لا يشبه أي وضع تاريخي آخر. لقد قلت: «الصهيونية هي أول حركة تحرير نجم عنها سلب التحرير من شعب آخر».

إ.س. الناحية الأخرى التي تحتاج إلى طرح هي أننا لا نتحدث عن المستوطنين البيض في أفريقيا ولا عن أفريقيا الصحراء الكبرى أو المنطقة الواقعة تحتها. نحن نتحدث عن أناس هم الضحية الكلاسيكية للاضطهاد والملاحقة. وقد أتوا إلى فلسطين وصنعوا ضحية أخرى. فرادة موقفنا هي أننا ضحايا للضحايا، وهذا أمر استثنائي جدا. هذا أولا.

أما ثانيا فنحن أول حركة تحرير وربما آخر واحدة تركت لتناضل في عالم تسكنه قوة عظمى واحدة، هي راعية العدو. لذلك ليس لدينا حليف استراتيجي، مثلما كان لدى الجنوب أفريقيين و «سوابو» والكوبيين والنيكاراغويين وغينيابيساو، فقد كان معهم وجود الاتحاد السوفييتي. وإنها لحقيقة مذهلة انه لم تنجح أي حركة تحرير ناجحة في القرن العشرين بعد الحرب العالمية الثانية دون الاتحاد السوفييتي. نحن دون الاتحاد السوفييتي. ليس الأمر انه سبق لنا وحصلنا عليه، ولكنه حتى

غير موجود الآن. وماذا عن بيئتنا - كان لدى الجنوب الأفريقيين الدول الأفريقية المجاورة - وفي حالتنا فإن الدول العربية المجاورة كانت أماكن ذبح فيها الفلسطينيون وهذا هو الأمر الاستثنائي الثاني.

أما الأمر الاستثنائي الثالث هي أننا حركة تحرير ولكنها في منتصف طريق نضالها تحولت إلى حركة استقلال، الاستقلال الوطني. لفترة طويلة بقينا نمارس نضالا على جبهتين بأسلوبين. أولا كنا نقول إننا حركة تحرير، منظمة التحرير الفلسطينية التي تعني تحرير فلسطين ولا تزال تسمى «م.ت.ف.» ومن ناحية أخرى كنا حركة استقلال، لأننا أردنا سيادة وطنية واستقلالا على جزء من فلسطين. لذلك، فالأمر شديد التعقيد، لأننا في النهاية حركة تحرير وتخلص من الاستعمار دون أي سيادة إطلاقا. كل الحركات الأخرى كانت لديها سيادة. هذا استعمار فريد أخضعنا له حيث ليس للمستعمر ما يرجوه منا. افضل فلسطيني بالنسبة لهم هو إما الميت أو الراحل. ليس الأمر انهم يريدون استغلالنا أو أنهم يحتاجون إلى إبقائنا هناك

كما كان عليه الأمر في الجزائر أو جنوب أفريقية كطبقة دنيا. إنهم يفعلون ذلك في الضفة الغربية وغزة. الفلسطينيون يبنون المنازل لأولئك الناس الذين يجردونهم من أملاكهم، [أصحاب] المستوطنات. ولكن لا توجد وجهة نظر ولا توجد إلا باستثناء وجودها بين أفراد قلائل، أي فكرة عما يمكن فعله بالفلسطينيين الموجودين هناك كبشر.

المؤرخ الجنوب أفريقي «كولين بندي» هو من أبدع نظرية تعالج مشكلة جنوب أفريقيا ويسميها: «استعمار من نوع خاص» في جنوب أفريقيا. لأن لديكم طبقة بيضاء محلية، وليس مستوطنين. ولكنها ستنطبق على نحو مساو على الفلسطينيين، باستثناء أني اعتقد أنكم ستدعونها «استعمار من نوع أكثر خصوصية حتى». إنه لعبء هائل.

د.ب. اشعر إلى حد كبير بأنك رجل معرفة وأدب وموسيقي وهنا

تكمن ميولك الطبيعية. ومع ذلك فأنت عالق في هذه الحلبة السياسية بوصفك «العربي المختار» لوسائل الأعلام الرئيسية. ما نوع التأثير الذي يحدثه هذا عليك؟

إ.س. لا أفكر بذلك كثيرا. لا أجد الأمر مثيرا أو مجزيا بالنسبة لمعظم أنواع المحاورات والمقابلات السريعة التي يجرونها معك، اللسعة التي تدوم (٢٢) دقيقة الخ، وأحاول ألا أجريها بعد الآن. لا يؤثر ذلك في....

د.ب. ما هو رأيك بالرهائن؟ «ما رأيك بالإرهابيين؟» هذه هي الأسئلة التي تطرح عليك.

إ.س. هذا صحيح. لقد كان هناك اهتمام كبير بي خلال فترة الرهائن، رغم أني لا اعرف شيئا عن الموضوع وهو لا يهمني. كانوا يهتفون لي ويقولون إنهم يريدون مني حوارا في حلقة اليوم نفسه حول إطلاق سراح «ويليام مان» أو أيا كان اسم الذي أطلقوا سراحه قبله، وكنت أقول: أجل، ولكن هل نستطيع أن نتحدث أيضا عن الـ (١٥,٠٠٠) سجين سياسي فلسطيني الذين هم رهائن داخل إسرائيل في الضفة الغربية وغزة؟ لا، لا نستطيع التحدث عن ذلك، هذه قصة مختلفة.

د.ب. سنحتاج إلى حوار بين ممثلين عن الجانبين.

إ.س. إنها فكرة الاختيار. إنه التركيز المخلص على موضوع واحد يطلب إليك دائما أن تتحدث بإسهاب عنه. مادة تافهة تماما، لمجرد وضعها على السجل لتتذكر أن شخصا من ذلك النوع قالها. لقد فقدت الاهتمام في ذلك. الشيء الأساسي الذي أهتم به الآن، وحتى أكون صادقا تماما معك، ليس قضية سياسية، بل قضية أخلاقية. أنا شديد الاهتمام ولا أضيع فرصة واحدة أجذب فيها انتباه المثقفين والكتاب والرسامين والفنانين والمسرحيين الخ، إلى هذه القضية التي تؤثر على

معظمهم. ليس اليهود فحسب، رغم أن الكثيرين منهم يهود. ولكن الأمريكان أيضا، لأن الأمريكان واليهود متورطون في هذا. الأمريكان يدفعون ثمن احتلال الضفة الغربية وغزة. واليهود، حتى لو كانوا غير مكترثين ولا يتابعون الموضوع، إلا أن اسمهم هو الذي يستخدم من قبل شامير حين يقول إننا نفعل ذلك لأجل أمن إسرائيل. إنها دولة الشعب اليهودي في كل مكان، وليس المواطنين فحسب. لذلك فإن إحساسي بالموضوع هو أنه من المهم جدا ربط إسرائيل بـــ : أ) الاحتلال، كما كانت جنوب أفريقيا مرتبطة بالأبارتهيد، و ب) أن اربط نفسي كفلسطيني وكأمريكي مع الأمريكان واليهود المهتمين المرتبطين بذلك بمعنى من المعاني، إعادة الربط. هذا هو أهم شيء يمكن فعله في الوقت الحاضر، على ما أعتقد.

د.ب. هناك قصة تحكيها واعتقد أنها ملهمة. لقد أجريت لك منذ فترة قصيرة عملية جراحية في الركبة وقد ركبت في سيارة تاكسي في نيويورك وتبادلت الحوار مع السائق.

إ.س. مع السائق الإسرائيلي؟ لقد سألني من أكون ثم ميزني أو شيء من هذا القبيل. قال: أنا إسرائيلي. قلت: حسنا وأنا فلسطيني. كان هناك صمت ثم قال: لم أخدم. رفضت الخدمة في الضفة الغربية، وأنا هنا لذلك السبب جزئيا. ثم قال: لذلك لسنا جميعا أشرارا. كان شديد الاهتمام في أن يشهد أمامي بأنه ليس كل إسرائيلي يمكن أن يقولب في قالب الشرطي حامل الهراوة الذي يضرب طفلا. ثم قال شيئا ما أشبه بـــ: يمكن أن نكون أصدقاء، أليس كذلك؟ قلت نعم بالطبع. أنت هو ذلك النوع من الأشخاص الذي أريد أن أكون صداقة معه. كان ذلك أشبه بلقاء غريب بين طرفين من كوكبين مختلفين. خرجت من السيارة. كانت رحلة قصيرة بالتاكسي. كنت امشي واعرج بساقي المريضة. ولكن خطر لي أنه ضمن معنى معين فإنها لحظة ضائعة في المستقبل. لا يمكن للكثير أن

يأتي منها: أ) بسبب الوضع و ب) بسبب حقيقة أننا كنا في حالة انتقال من مكان إلى مكان، لقد كان بعيدا وكنت بعيدا ثم حدث أن التقينا. ولكن ذلك ترك إحساسا بالندم، بأنه كان لابد من وجود طريقة لجعل مثل هذه اللقاءات ممكنة بطريقة ذات مغزى وديمومة.

د.ب. حين قتل «مائير كاهانا» في نيويورك، اتجهت أول أفكاري إليك والخطر الذي واجهته في ذلك الحين. من الواضح أن الخوف مرتبط بنوع العمل الذي تقوم به. كيف تتعامل مع ذلك؟

إ.س. لا أفكر بذلك كثيرا جدا فالخطر الذي يواجهه المواطن العادي الذي يقطن في «أبر ويست سايد» حيث أعيش في مانهاتن وهو يعبر الشارع يعادل الخطر الذي يواجهك حين يهددك متعصب مجنون يريد أن يطلق النار عليك. أعتقد انك لو أمعنت النظر في أي مشكلة من هذا النوع، عندها فإن أسوأ شيء يمكن إنجازه هو تجريدك من قوتك. الشيء الأساسي هو أن تستمر مع أخذ احتياطات معقولة. الأمر أصعب على الآخرين مما هو عليك. لقد اعتدت الأمر. لقد هددتني مجموعات عربية. أنا على نصف دزينة من لوائح الموت في الشرق الأوسط. أعتقد أن الأمر الأساسي هو أن يستمر المرء ويتذكر أن ما يقوله ويفعله يعني اكثر بكثير من كونه آمنا أم لا.

د.ب. هناك صفة مكتومة أخرى لقضية فلسطين هي التمثيل المسيحي في الحركة الفلسطينية. أنت نفسك مسيحي، وكذلك جورج حبش ونايف حواتمه وآخرون. كيف تفسر الأمر، وصححني إذا كان إدراكي خاطئا، ولكن يبدو أن هناك عدد غير متناسب من الأساتذة الجامعيين والأطباء وأطباء الأسنان الخ لهم خلفية مسيحية في الحركة القومية.

إ.س. هناك تفسيران استشراقيان كلاسيكيان يعطيان لهذا: المسيحيون في الشرق الأوسط تواقون إلى إثبات أنهم أعضاء كفؤين في

المجتمع. إنهم يخشون الأغلبية السنية، وعليهم أن يبرهنوا أنهم أكثر وطنية وفعالية في النضال الوطني من المسلم العادي. إنه شكل من التعويض المفرط عن نوع من القلق الداخلي الذي تشعر به الأقليات والحرص على إثبات جدارتها. وإحدى الطرق هو الهجوم على الأغلبية، ولكن في حالتنا هذه فإنه الانتماء إليها بالإفراط في التماثل. والسبب الاستشراقي الثاني المعطى هو أن الناس منخرطون في هذا لأن المسيحيين طبقة أعلى بالفطرة من المسلمين. معظمهم درس في الغرب. وهم ينطقون بلغات غريبة. وقد انحدروا من عائلات «مغربية». لذلك، فهم على مستوى أعلى من الآخرين ويشعرون انه من المهم الانخراط في الحركة.

اشعر أنه أمر طبيعي تماما للمسيحي و/أو المسلم أن ينخرطا في هذا، وإن كانت هناك أي أهمية خاصة لكون المرء مسيحيا في فلسطين فإنه من الواضح أن كثيرا منا فخورون تماما بالقرون الكثيرة، (٢٠٠٠) سنة من الوجود المسيحي في فلسطين، وهو الوجود الذي ننتمي إليه. وهذا يتضمن التزاما خاصا بأن يكون المرء فعالا من جانب مجتمعنا الوطني. اعتقد أننا جميعا نشعر بذلك. علي أن أخبرك أني كنت منخرطا في هذا النضال لسنوات عديدة في حياتي. هناك أعضاء كثيرون من أسرتنا انخرطوا في هذا العمل وأعرف كل الناس الذين ذكرتهم.

لا واحد منا قد شعر في يوم من الأيام بأدنى تمييز ضدنا من قبل الأغلبية. وأعتقد أن آخر ناحية تتعلق بهذا الأمر هي أن المفهوم الكامل للعلاقة بين الأقلية والأغلبية في العالم العربي ليس بالأمر الممكن إدراكه بسهولة من قبل شخص أوربي أو غربي يفكر دائما من خلال معايير العنصرية الغربية والتمييز الغربي ضد الأقليات المضطهدة. لا تسير الأمور على هذا النحو، لا أقول إن الأقليات هي دائما في حالة يسر رائع في العالم العربي وأنها لم تتعرض للاضطهاد، فقد اضطهدت. ولكنها

طريقة عيش عامة كانت في رأيي أكثر صحة وطبيعية ويسرا عن طريقة العيش المثقلة بالقلق والكبح بين الأقلية والأغلبية في الغرب.

د.ب. أنت مغرم باقتباس عبارة «سيزير»: «هناك مجال أمام كل شخص في موعد النصر».

إ.س. نعم. فكرة التجانس لها، أي انك إذا كنت تنتمي إلى مجموعة فإن كل فرد من تلك المجموعة يجب أن يكون متشابها بالضبط، وان لهذه المجموعة بالذات الحق إن كانت أغلبية: هذا أمر خاطئ تماما. لم تكن نشأتي على هذا النحو. أعتقد انه من المهم أن نتذكر أن التغيرات في الشرق الأوسط التي جرى بموجبها تقسيم الدول في المنطقة وكذلك الجيران، فأصبحت سورية للسوريين ولبنان للبنانيين والأردن للأردنيين ومصر للمصريين، كل هذا نتاج حديث تماما. حين كنت يافعا كان من الممكن الانتقال من بلد ما كلبنان إلى الأردن وسورية وفلسطين ومصر والعبور بها كلها برا. كان من الممكن فعل ذلك. كل المدارس التي ذهبت إليها صغيرا كانت مليئة بأناس من مختلف الأجناس. كان من الطبيعي تماما بالنسبة لي أن أكون في المدرسة مع الأرمن والمسلمين والطليان واليهود واليونان، لأن ذلك كان الشرق وهكذا نشأت. النزعة التقسيمية الجديدة والمركزية العنصرية التي نجدها الآن نتاج حديث نسبيا وغريب تماما علي. وأنا اكرهه. لهذا فإن ذلك الاقتباس من «سيزير هام جدا كرؤيا بأن هناك مجالا للجميع». لماذا على امرئ أن يكون فوق الآخر؟ لماذا على المرء أن يصل إلى هناك أولا ويدفع بعيدا كل الناس الآخرين في موعد النصر؟ بدا لي فعل ذلك على أنه خطأ بالكامل. وأحد الأمور لتي عارضتها ضمن أشياء عديدة كتبتها مؤخرا هي الفكرة الواردة في مفكرات ثقافية وسياسية للمضطهدين [بفتح الهاء] بأنهم حين يصلون إلى موعد النصر فسوف ينتقمون من الآخرين. هذا أمر غريب تماما على فكرة التحرير. لقد كان جزءا من مزية الريح انك تستطيع أن تسخر من

كل الناس الآخرين. هذا يعارض بالضبط سبب الكفاح نفسه، ولهذا السبب لا أستطيع الموافقة عليه. هذا مأزق آخر من مآزق القومية، أو ما يسميه «فانون»: «مأزق الوعي القومي». وحين يصبح الوعي القومي غاية بحد ذاته، فإن الخصوصية العرقية أو الجنسية أو الجوهر القومي المخترع إلى حد بعيد بحد ذاته،حين يصبح كل هذا برنامج حضارة أو ثقافة أو حزب سياسي، فأنت تعرف أنها نهاية المجتمع البشري وستحصل على شيء آخر.

د.ب. ربما نستطيع أن نختتم بملاحظة أدبية. الكثير من أعمالك متشرب بالشعر. لقد اقتبست من نيرودا في مقالة أسميتها: «ييتس والقضاء على الاستعمار» فقلت: «عبري ستنادي الحرية والبحر ردا على القلب المحجوب عن النظر».

إ.س. إنه مقطع رائع. لا اعرف كم هي ترجمته جيدة، أو كم دقيقة هي. الفكرة هي أن البشر ليسوا أوعية مغلقة، ولكن أدوات يمكن أن تتدفق عبرها أمور أخرى. فكرة الكائن البشري كمسافر يمكن أن يطبع عليه أو عليها مشاهد وأصوات وأجساد وأفكار الآخرين حتى يستطيع هو أو هي أن يصبح شخصا آخر ويستوعب بقدْر البحر ثم يحرر الحجب والحواجز والأبواب والجدران التي هي جزء كبير من الوجود الإنساني. هذه هي المسألة.

غالبا ما فكرت أن الأمر المهم حول فلسطين هو أن لفلسطين بمعنى من المعاني، وهنا بعض الشوفينية، نوعا من العالمية وبالواقع وبسبب سلطتها المرجعية الفانتازية، فإن القدس كمركز للعالم، القدس، المدينة التي أنتمي إليها، لها وضع فريد في العالم. إنها ليست مدينة عادية، على الأقل في وضعها الوجودي والخيالي. ولكن أن تفكر بان القدس هي مدينة شخص واحد وأنها المكان الذي انطلقت منه المسيحية «فحسب» أو المكان الذي تقول كنيسة الروم الأرثوذكس انه مركز سلطتها، هذا تحقير للقدس. إنها لها تلك السلطة المتقشرة الاستثنائية التي خانها كل

برنامج سياسي، وبالنسبة لإسرائيل، السيادة، فهي قد استولت عليها. لم يكن الأردنيون افضل من ذلك. إن الموقف العربي بالنسبة للقدس، ألا وهو إعادة تقسيمها إلى قدس شرقية وغربية غير مقبول أبدا لي. والفكرة هي انه بالنسبة إلى مكان كالقدس فأنت في حاجة إلى رؤيا خيالية لوضع المدينة يمكن تحقيقه خلال حياة مواطني القدس ولا يفرض عليهم من قبل حرس ومراكز حراسة ومخافر شرطة.

د.ب. الأرمن من أرمينيا التاريخية في شرقي تركيا اعتادوا أن يحجوا إلى القدس، وحين كانوا يعودون إلى الوطن كانوا يسمون بـ «الحجي».

إ.س. الكلمة تستخدم بالعربية لحجاج مكة والمدينة، وكذلك القدس. وفكرة «الهجرة» كلها فكرة هامة في هذا المفهوم كله. «الهجرة» و«الحج» أمران بينهما علاقة هامة جدا، أن تهاجر ثم تعود في نوع من الحج مسألة هامة جدا. ولكن على المرء أن يراهما كلاهما، العودة والمنفى، وليس واحدا منهما فحسب.

القلم والسيف
الثقافة والإمبريالية

١٨ كانون الثاني (يناير)١٩٩٣

دافيد بارساميان : أين يلعب الاستشراق دوره كعامل في «الثقافة والإمبريالية»؟

إدوارد سعيد:: ما فعله الاستشراق كان شيئا محدودا إلى حد ما، رغم أنه غطى مجالا كبيرا. لقد كنت مهتما بالمفاهيم الغربية عن الشرق وفي تحول وجهات النظر تلك إلى حكم غربي للشرق. لقد قصرت نفسي على الفترة من حوالي عام (١٨٠٠) حتى الوقت الحاضر، باحثا في العالم العربي الإسلامي. لقد نظرت إليه من وجهة نظر الغرب فحسب، مع الفهم، الذي أساء فهمه نقادي إلى حد كبير في رأيي، أني كنت أتحدث عن وجه واحد من وجوه الغرب، وليس الغرب كله. لم أكن اقترح بان الغرب وحدة متراصة متناغمة. ولكن عنيت تلك الدوائر الغربية في إنكلترا وفرنسا وأمريكا التي كانت مهتمة، كقضية سياسية وكحكم، بالشرق الأوسط.

«الثقافة والإمبريالية» بمعنى من المعاني تتمة لذلك من حيث:

أ) أناقش فيه أنحاء أخرى من العالم علاوة على الشرق الأوسط. وفي الواقع لا أنفق الكثير من الوقت متحدثا عن الشرق الأوسط. أنظر

إلى الهند، شبه القارة عموما، والكثير من أفريقيا، والبحر الكاريبي، وأستراليا، وأجزاء أخرى من العالم حيث كان هناك استثمار غربي رئيسي، سواء عبر الاستعمار الإمبراطوري أو المباشر أو ما هو مزيج منهما كما في الهند. هذا أحد الفروق.

ب) رغم أني أعالج الفترة نفسها، أي من نهاية القرن الثامن عشر وحتى وقتنا الحالي، فإن الوجه الثاني للكتاب الذي يعتمد إلى درجة ما على «الاستشراق» ولكنه يمضي أبعد منه، هو أني انظر إلى الردود على الغرب، مقاومة الغرب في الأماكن التي أناقشها. أي أنه خلافا لـ«الاستشراق» - حيث لم أعالج سوى الكتاب والسياسات الأوربية والأمريكية - في هذه الحالة انظر إلى ثقافة المقاومة التي ظهرت كاستجابة للإمبريالية ونمت حتى أضحت ما يدعى في القرن العشرين «القومية». أنظر إلى الشعراء والكتاب والمناضلين والمنظرين في مجال المقاومة في منطقة البحر الكاريبي وأمريكا اللاتينية وأفريقيا وآسيا.

د.ب.: إذن، ليس هذا في المقام الأول من خلال موشور الأدب.

إ.س.: أو الغرب. رغم أن الأدب يعطي مزية معينة بسبب أن حجتي تقول إن كثيرا من المواقف، والإشارات إلى العالم اللاأوربي قد كانت بمعنى ما مكيفة ومحضرة مما تسميه الوثائق الثقافية، بما فيها الأدبية، والحكايات على نحو أساسي. وفي رأيي، فإن الرواية تلعب دورا هاما على نحو استثنائي في المساعدة على خلق مواقف إمبراطورية نحو بقية العالم. ومن المهم على نحو كاف أني لست مهتما حقا بنوع الإمبريالية الذي يراه المرء في روسيا، حيث تقدم الروس بالتخوم بكل بساطة. لقد تحركوا شرقا وجنوبا، نحو أي تخم كان قريبا منهم. وأنا أكثر اهتماما بكثير بالطريقة التي استطاع فيها الأوربيون، البريطانيون والفرنسيون على نحو رئيسي، أن يقفزوا بعيدا عن شواطئهم ويتبعوا سياسة السيطرة فيما وراء البحار. حتى أن إنكلترا استطاعت أن تحتل الهند لمدة (٣٠٠)

عام وهي على مسافة ثمانية إلى تسعة آلاف ميل من شواطئها.

د.ب.: وبواسطة ١٠٠,٠٠٠ شخص.

إ.س. : هذه حقيقة مدهشة. رغم وجود فواصل جغرافية هامة بين المركز المتروبوليتاني والمستعمرة البعيدة، في بعض الحالات مثلا: فرنسا والجزائر، فإن تلك المستعمرة البعيدة قد تم استيعابها أصبحت جزءا من فرنسا، كما هي المارتينيك وغواديلوب حتى يومنا هذا في البحر الكاريبي. كما أنظر كثيرا إلى أيرلندا لأنها المستعمرة الأوربية الرئيسية. في الكتاب أتناول الطريقة التي كانت بها بريطانيا وفرنسا طليعيتين في فكرة الاستطيان فيما وراء البحار مع الهيمنة. بعد عام (١٩٤٥)، ومع حلول فترة إزالة الاستعمار، وحين جرى تفكيك الإمبراطوريتين البريطانية والفرنسية واستلمت الولايات المتحدة الدور، فلديك إذن استمرار للصفات نفسها.

د.ب.: أنت تجادل بأن الثقافة جعلت الإمبريالية ممكنة وأنت تستشهد بـ «بليك»: «أساس الإمبراطورية الفن والعلم. تخلص منهما أو حط من قدرهما، فلا تعود الإمبراطورية موجودة. تتبع الإمبراطورية الفن وليس العكس صحيحا، كما يفترض الإنكليز».

إ.س.: أعتقد أن إحدى الأخطاء الرئيسية في المادة الهائلة المكتوبة في مجال الاقتصاد والعلوم السياسية والتاريخ حول الإمبريالية هي أن اهتماما ضئيلا جدا قد أعطي لدور الثقافة في إبقاء إمبراطورية على قيد الحياة. كان «كونراد» واحدا من أكثر الشهود استثنائية على هذا. لقد فهم أن الأمر المركزي في فكرة الإمبراطورية ليس الربح إلى ذلك الحد، رغم أن الربح كان دافعا بكل تأكيد. ولكن ما يميز الإمبراطوريات الأسبق، مثل الرومانية أو الأسبانية أو العربية، عن الإمبراطوريات الحديثة، ومنها كانت الإمبراطورية البريطانية والفرنسية هما العظميين في القرن التاسع عشر، هو حقيقة أن هاتين الأخيرتين مشروعان

متماسكان ويجري الاستثمار فيهما على نحو مطرد. إنهما لا تصلان ببساطة إلى بلد ما، فتسلبانه ثم تتركانه حين تنتهي الغنيمة. وإن الإمبراطورية الحديثة تتطلب، كما قال «كونراد» فكرة الخدمة، فكرة التضحية، فكرة الافتداء. ومن هذا تحصل على هذه الأفكار العظيمة المدعمة على نحو هائل، مثلا، في حالة فرنسا، «مهمة نشر المدنية». نحن لسنا هناك لنستفيد، بل نحن هناك لأجل السكان الأصليين. أو خذ حالة أشخاص شأن «جون ستيوارت ميل»: «نحن هناك لأن الهند تحتاج إلينا، وأن هذه أراض وشعوب تنشد الهيمنة منا»، وأنه، كما يقول «كيبلينغ» في بعض أعماله، دون الإنكليز سيحل الخراب بالهند.

لذلك فأنا أهتم بتلك العقدة من الأفكار على نحو خاص. وما كان اكتشافا هائلا بالنسبة لي أن هذه الأفكار كانت لا تجد من يتحداها في المراكز الميتروبوليتانية. وحتى الأشخاص الذين نعجب بهم جدا في هذه الأيام، مثل «دي توكفيل» و«ميل»، والحركة النسائية التي بدأت في نهاية القرن التاسع عشر...

د.ب.: و «جين أوستن».

إ.س.: «جين أوستن» حالة منفصلة. ولكنها أسبق من ذلك كثيرا من حيث الزمن. إلا أني أتكلم عن الحركات المنظمة، الحركة الليبرالية، الحركة التقدمية، حركة الطبقة العاملة أو الحركة النسائية. كانت كلها إمبريالية عموما. لم يكن هناك خروج على ذلك. المرة الوحيدة التي بدأت فيها التغيرات داخل أوربا والولايات المتحدة كانت حين بدأ السكان الأصليون أنفسهم في المستعمرات يتمردون وجعلوا من الصعب جدا على تلك الأفكار أن تستمر دون تحد. ثم بدأ أشخاص مثل «سارتر»، دعما للجزائريين، يتظاهرون لصالحهم. ولكن حتى ذلك الحين كان هناك تواطؤ واسع الانتشار، رغم وجود بعض المتمردين، والشخصيات المعارضة، مثل «ويلفرد سكاون بلنت» في إنكلترا.

د.ب.: ولكن وراء واجهة الثقافة، ألم يكن الصمغ الذي جعل الإمبراطورية متماسكة هو القوة والإكراه والتهديد؟

إ.س.: أجل بالطبع. ولكن ما نحن بحاجة إلى فهمه هو كيف أن قوة الجيش البريطاني مثلا في الهند كانت في حدها الأدنى في أغلب الأحيان وبطريقة ما، هذا إذا ما أخذنا في الاعتبار مساحة الأراضي التي كان يديرها ويحتلها. ولكن ما هو لديك بدلا عن ذلك هو برنامج تهدئة تم بموجبه في الهند مثلا نشر نظام تعليم في ثلاثينات القرن التاسع عشر، وكان يعالج بالفعل حقيقة أن تعليم الهنود تحت الحكم البريطاني يجب أن يعلم الهنود تفوق الحضارة البريطانية على الحضارة الهندية. وبالطبع حين حدث تمرد، كما في حالة ما يسمى «التمرد الهندي» الشهير في عام (١٨٥٧)، فقد تم التعامل معها بالقوة، دون رحمة، بوحشية حاسمة. ثم يمكن إعادة تركيب الواجهة وتستطيع القول إننا هنا لأجلكم وهذا مفيد لكم. إذن كانت القوة، ولكن ما هو أهم بكثير في رأيي من القوة، التي كانت تستخدم انتقائيا، كانت الفكرة المغروسة في أذهان الناس المستعمرين (بفتح الميم)، وهي أن مصيرهم يجب أن يتحكم به الغرب.

د.ب.: ألست تلمح إلى أنه في حالة الهند في مطلع القرن التاسع عشر، فإنه حدث أن درست الرواية الإنكليزية هناك [في الهند] قبل أن تدرس في إنكلترا.

إ.س.: ليس الرواية الإنكليزية إلى ذلك الحد، ولكن الأدب الإنكليزي الحديث كان يدرس في الهند. كان هذا هو اكتشاف طالبة سابقة من طالباتي وزميلة حالية اسمها «غوري فيسواناثان» وذلك في كتابها «أقنعة الغزو». إن ما تقول به هو أن دراسة الأدب الإنكليزي المعاصر قد بدأ في الهند قبل أن يصبح موضوعا للبحث والتدريس الجامعيين في إنكلترا المتروبوليتانية. إن لم تكن لديك ثقافة وأفكار حول

الثقافة، أفضل ما يمكن أن يفكر به ويعرف، فستكون لديك فوضى سياسية أو اجتماعية. سيكون لديك في النتيجة مجتمع دون قانون. تلك الأفكار خرجت من السياق الهندي، حيث خدم أخوها لسنوات طويلة.

د.ب.: كيف تفسر الاهتمام الدائم بـ «جوزيف كونراد» وأعماله؟ غالبا ما تشير إلى «قلب الظلام».

إ.س.: لست مهتما في «قلب الظلام» فحسب. إن رواية «نوسترومو» التي اعتقد أنها رواية عظيمة بالقدر نفسه وقد نشرت لاحقا، حوالي عام (١٩٠٤)، لهي رواية تدور حول أمريكا اللاتينية. يبدو كونراد لي على أنه أهم شاهد على الإمبريالية الأوربية. لقد كان بالتأكيد شديد الانتقاد للتنويعات الأشد جشعا من تنويعات الإمبراطورية. مثلا، انتقد البلجيك في الكونغو. ولكنه فهم أكثر من كل الناس الآخرين كيف أصابت الإمبراطورية بالعدوى على نحو ماكر ليس فحسب الناس الذين خضعوا لها، ولكن أولئك الذين خدموها. أي أن فكرة الخدمة تحمل في ذاتها وهما بأنه مثلا في حالة الشخصيات في «قلب الظلام» وفي «نوسترومو» أيضا على نحو خاص، وهو وهم يستطيع أن يغوي ويأسر المرء، حتى أضحت في النهاية شكلا من أشكال الفساد الشامل. مشكلة كونراد في رأيي، وقد أوضحت هذا مرات عديدة في الكتاب، هي أنه رغم كونه مضادا للإمبريالية من نواح كثيرة، إلا أنه اعتقد أيضا أن الإمبريالية محتومة. لم يستطع أن يفهم، ولم يفعل غيره في تلك الأيام أيضا، أنه من الممكن للسكان الأصليين أن يأخذوا بأيديهم زمام التحكم بمصيرهم. لا ألومه على نحو استعادي. لقد عاش في عالم سادته جوهريا المركزية الأوربية. بالنسبة إليه، ورغم أن الإمبريالية كانت في حالات كثيرة سيئة، ومليئة بالمفاسد، ورغم أنها ألحقت الأذى والضرر بالشعوب البيضاء وغير البيضاء، إلا إنه لم يكن هناك بديل عن ذلك. وحين وصل الأمر إلى ما يسمى الآن بالتحرير والاستقلال والحرية

للشعوب من الاستعمار والإمبريالية، فإن كونراد لم يستطع الوصول إلى ذلك ببساطة. وأعتقد أن هذه هي محدوديته التراجيدية تقريبا.

د.ب.: ولكن في النهاية فإن أعماله تمنح المصادقة والتوكيد للإمبريالية.

إ.س.: أجل، والأمر أعقد من ذلك. فبمعنى من المعاني فإن ما يفعله في رواياته هو إعادة تلخيص المغامرة الإمبريالية. تدور رواياته بالفعل حول أشخاص يخرجون إلى المناطق النائية في أحوال كثيرة، إلى «قلب الظلام» في حالة أفريقية، وإلى أمريكا اللاتينية في «نوسترومو». وهناك يشربون أنفسهم بفكرة الخدمة، أنهم هناك لمساعدة الناس. ولكن بالطبع هم يعملون على إثراء أنفسهم. لن أقول إنه يصادق على هذا. إنه يراه على أنه حتمي. إنه لا ينتقده كشيء يمكن إحلال فكرة مختلفة محله. وهو أكثر من معظم الناس كان لديه إحساس الشخص الغريب بأن أوربا كانت محكومة بمعنى من المعاني بأن تكرر دورة المغامرة الأجنبية والفساد والانحدار هذه.

د.ب.: حين تدرس هؤلاء الروائيين، فلوبير، بلزاك، تنيسون، ووردزويرث، ديكنز، وسواهم، فإنك تعرض نفسك للنقد القائل إنك تضع فلتر الحاضر فوق عدسات الماضي.

إ.س.: أحاول ألا أفعل ذلك. ما أركز عليه حصرا هي إشارات دقيقة جدا في النصوص حيث يقول بالفعل هؤلاء الكتاب، مجرد جزء من الأسماء التي ذكرت، الأمور التي أقول إنهم يقولونها. أنا لا ألومهم على نحو استعادي. أقول بكل وضوح في بداية الكتاب إن ما لا يهمني هو سياسات اللوم. هكذا كان العالم. أولئك الناس ووجهات نظرهم هم من الخاسرين. لقد هزموا في الموجة الهائلة من إزالة الاستعمار التي تشكل الفصل الثالث الكبير من الكتاب ولكن ما أقوله أيضا هو أني أعتقد أنه من الخطأ أن نقوم من جانبنا بتبرئة الأرشيف الثقافي من أي ارتباط

بالتجربة الإمبريالية القذرة بالأحرى. وفي الواقع أقول إن كثيرا من هؤلاء الكتاب يصبحون أكثر إثارة للاهتمام بحقيقة أنهم فهموا وجود المستعمرات عبر البحار واعتبروها مسألة مفروغا منها بالنسبة للبريطانيين.

مثلا، في رواية «مانسفيلد بارك» لجين أوستن أعلق على شيء ما موجود في الرواية. إنه ليس شيئا أضيفه إليها. إن مالك العزبة، المسماة «مانسفيلد بارك»، واسمه السير توماس بيرترام، سيذهب إلى «أنتيغوا» حيث يملك مزرعة يديرها العبيد على ما يبدو وذلك ليملأ خزائن مانسفيلد بارك. لذلك هناك اتكالية ما لعزبة جميلة، تعني الراحة والهدوء والجمال في إنكلترا، على إنتاج السكر في مستعمرة يديرها العبيد في أنتيغوا.

في مجال عملنا، فإن أشخاصا مثلي يدرسون الأدب يسمحون لأنفسهم أن يختبئوا خلف ستارة بعيدا عن السياسة والتاريخ. تنظر إلى العمل الفني. أنا الأفضل في تقييمي لعمل فني، ولا أتعامل إلا مع الكتاب الذين أحبهم أميل إليهم وأعجب بهم. ولكني أقول إنه في قراءتي للكتب لا يكفي أن أقول: «إنها أعمال فنية». بل أحاول أن أعيد وضعها وإقحامها في تاريخها وإظهار - وهنا النقطة الهامة - كيف أن كتابا كثيرين لاحقين، مثلا مجموعة كاملة من الكتاب الإفريقيين الذين كتبوا بعد كونراد، أعادوا بالفعل كتابة «قلب الظلام». ما نتكلم عنه هو عملية «كتابة نحو الوراء» وقد حدثت.

إذن بدلا عن القول إن رواية جين أوستن تدور فعلا حول إنكلترا فحسب، هاأنذا أقول إنها عن البحر الكاريبي. وحتى تفهمها عليك أن تفهم كتابة التاريخ الكاريبي بقلم كتاب كاريبيين آخرين. إننا لا نحتاج إلى وجهة نظر جين أوستن فحسب بالبحر الكاريبي. نحن في حاجة إلى وجهات النظر الأخرى أيضا. أؤسس لما أسميه قراءة تعتمد على الطباق،

أصوات كثيرة تنتج تاريخا.

النقطة الأساسية هي أن التجربة الإمبريالية هي حقا تجربة تواريخ ذات اتكالية متبادلة. تاريخ الهند وتاريخ إنكلترا مثلا يجب أن يفكر فيهما معا. لست ميالا إلى الفصل. جهدي كله منصب على دمج مجالات التجربة التي فصلت تحليليا وسياسيا، واعتقد أن هذا خطأ.

د.ب.: «إي. إم. فورستر» كاتب آخر تناقشه في كتابك. في كتابه «هاوردز إند» هناك تلميح إلى مزرعة في نيجيريا.

إ.س.: ليس تلميحا فحسب، إن آل ويلكوكس الذين يملكون «هواردزإند». يملكون أيضا لشركة المطاط الأنغلو-نيجيرية. إن ثروتهم مستمدة من أفريقيا. ولكن معظم نقاد تلك الرواية، مثلا كتاب «ليونيل تريلينغ» عن فورستر، لا يذكرون هذه الحقيقة بكل بساطة. إنها في الكتاب. وما أحاول فعله هو إلقاء الأضواء على هذه النواحي من الأرشيف الثقافي الضخم للغرب، كما أحاول أيضا النظر إلى الأرشيف الثقافي لأماكن مثل استراليا وشمال أفريقيا وأفريقيا الوسطى وأمكنة أخرى. إنها كلها موجودة هناك. علينا التعامل مع هذه الكتلة من المواد. إنه لأمر هام جدا. قد تتذكر أن العبارة التي تتصدر «هاوردز إند» هي: «قم بالوصل فقط». إنه لمن المهم وصل الأمور الواحد مع الآخر. هذا ما أحاول فعله في «الثقافة والإمبريالية».

د.ب.: ذلك تقبل «روح العصر» ولا تنقدها.

إ.س.: يأتي النقد في حركات المقاومة العظيمة، التي هزمت الإمبراطوريات في النهاية. الواقع أن الإمبراطوريات لم تبق حية بعد الحرب العالمية الثانية. إن حركة «حزب المؤتمر» التي انطلقت في الهند في عام (١٨٨٠)، كانت الحزب نفسه الذي استلم السلطة في الهند بعد رحيل البريطانيين في عام(١٩٤٧). إحدى النقاط التي حاولت توضيحها هنا هي أن كل حركات المقاومة العظيمة في أفريقيا وآسيا وأمريكا

اللاتينية تقفت أثر تاريخها عائدة إلى أول من قاوم قدوم الرجل الأبيض. هناك استمرارية للمقاومة.

مثلا، «جبهة التحرير الوطني» الجزائرية التي هزمت الفرنسيين ونالت الاستقلال في عام (١٩٦٢) رأت نفسها استمرارا للمقاومة التي بدأت في عام (١٨٣٠)على يد الأمير عبد القادر في الجزائر. لقد نظروا إلى أنفسهم كجزء من التاريخ نفسه. هذا ما كنت أحاول توضيحه. هناك تاريخ متواصل للنضال. الإمبريالية ليست أبدا فرض وجهة نظر واحدة على أخرى. إنها تجربة مفندة ومشتركة. من المهم تذكر ذلك.

د.ب.: طالما نتحدث عن الجزائر، فلننتقل إلى «ألبير كامو» الذي تجده «شخصية هامة جدا». لقد نال جائزة نوبل ويعتبر كاتبا يؤمن بالخلاص وله بصيرة خاصة في الوضع البشري، وهو رمز للتهذيب ومقاومة الفاشية ولكن من تحت منظارك، يخرج ألبير كامو آخر مختلف جدا.

إ.س.: يبقى كامو كاتبا كبيرا ذا أسلوب رائع، وهو روائي نموذجي من نواح عديدة. إنه يتحدث بالتأكيد عن المقاومة ولكن ما يزعجني هو أنه يقرأ خارج سياقه، خارج تاريخه الخاص. تاريخ كامو هو تاريخ «مستعمر»، «أوربي من أوربيي الجزائر». لقد ولد وترعرع في مكان قريب جدا من مدينة في الجزائر على الشاطئ، هي «عنابة» بالعربية و«بون» بالفرنسية. وقد حولت إلى مدينة فرنسية في ثمانينات القرن الماضي وتسعينا ته. فتنتمي أسرته إلى كورسيكا وأنحاء مختلفة من جنوب أوربا وفرنسا. ورواياته في رأيي هي تعبيرات حقيقية عن الورطة الكولونيالية. يقتل «ميرسو» في رواية «الغريب» الذي لا يعطيه كامو أي اسم أو تاريخ. والفكرة بكاملها في نهاية الرواية حين يحاكم «ميرسو» حكاية إيديولوجية. فلم يسبق لفرنسي أن حوكم لقتله عربيا في الجزائر الكولونيالية. هذا كذب. لذلك فهو يبني شيئا ما.

ثانيا، في روايته اللاحقة «الطاعون»، فإن الناس الذين يموتون في المدينة هم العرب، ولكنهم لا يذكرون. الأناس الوحيدون الذين يهمون كامو والقارئ الأوربي في حينه، وحتى الآن، هم الأوربيون. العرب موجودون هناك ليموتوا. والقصة، وهذا مثير للاهتمام بما فيه الكفاية، تفسر دائما على أنها تورية أو حكاية مجازية للاحتلال الألماني لفرنسا. إن قراءتي لكامو، ولقصصه اللاحقة بكل تأكيد، تبدأ من حقيقة أنه كان في أواخر الخمسينات من هذا القرن، معارضا كبيرا لاستقلال الجزائر. وقد قارن في الواقع جبهة التحرير الوطنية الجزائرية بعبد الناصر في مصر، بعد أحداث السويس، بعد عام (١٩٥٦).

د.ب.: لقد قال في عام (١٩٥٧): «فيما يخص الجزائر، فإن الاستقلال الوطني صيغة عاطفية. لم يسبق أن وجدت أمة جزائرية».

إ.س.: بالضبط. لم يسبق أن وجدت أمة جزائرية. لقد ندد بالإمبريالية الإسلامية. وبغض النظر عن كونه مراقبا حياديا للشرط الإنساني، إلا أن كامو كان شاهدا كولونياليا. والجزء المثير للحنق في ذلك هو أنه لم يقرأ أبدا على هذا النحو. لقد قرأ ولداي مؤخرا في المدرسة وفي الكلية في مادة اللغة الفرنسية «الطاعون» و«الغريب». في كلتا الحالتين فإن ابني وابنتي قد جعلا يقرآن كامو خارج السياق الكولونيالي دون إشارة إلى التاريخ المتنازع عليه بالأحرى والذي كان هو جزءا منه. لم يكن مجرد مراقب حيادي. لقد كان معارضا ملتزما من معارضي جبهة التحرير الوطنية.

د.ب.: في «المنفى والملكوت» قصة مثيرة جدا للاهتمام تسمى «المرأة الزانية». وأنت تثير سؤالا حول اللغة.

إ.س.: ليس اللغة فحسب. هذه قصة متأخرة، بعد عام (١٩٥٥). إنها تدور حول امرأة تدعى «جانين» متزوجة من بائع جوال. وهما يذهبان في رحلة بالباص إلى جنوب الجزائر. وتعلق المرأة، كما شعر كامو

على الأرجح في ذلك الحين، أنها تعيش في بلد هو بلدها، ولكن هناك أولئك الأغراب. إنها لا تعرف العربية. إنها تعاملهم وكأنهم عرق على حدة. وأخيرا يصلان إلى الجهة المقصودة بالسفر، وهي بلدة مغبرة في جنوب الجزائر. ينفقان الليل. لا تستطيع هي النوم. تخرج ليلا. وفي لحظة يجب أن تفهم على أنها لحظة إشباع جنسي، تتمدد على التراب الجزائري وتنخرط في طقس مشاركة مع الأرض، يقول عنه كامو في ملاحظة لاحقة إنه طريقة لتجديد الذات، وذلك باستمداد الطاقة من البلد. غالبا ما يقرأ هذا كنوع من التورية الوجودية، بينما هو في الحقيقة توكيد للحق الاستعماري للشعب الفرنسي، لأن «جانين» فرنسية في الأرض الجزائرية، التي يعتقدون أنها تخصهم. أنا اقرأها في هذا السياق،بينما لا تقرأ عادة بهذا الأسلوب. وأنا اربط هذا برفض كامو للتسليم بفكرة جزائر خاصة بفرنسا. «الجزائر الفرنسية». غالبا ما يقتبس على أنه قال - وميكائيل فالتسر مثلا يقتبسه دائما - إذا حدث في زمن الحرب أن كان علي أن أختار بين العدالة والأفكار الصحيحة وحياة أمي إن كانت مهددة من قبل إرهابيين، فإني بالطبع سأختار أمي.

ولكن هذه خيارات مزيفة. والخيار هو بين مسؤولية المثقفين أمام العدالة والحقيقة والكذب حيال ذلك، وهذا مالا ينجح كثير من معجبي كامو في رؤيته.

د.ب.: أولم يعلن الفرنسيون بأن العربية لغة أجنبية في الجزائر؟

إ.س.: لقد حظرت اللغة العربية، في نهاية الحرب العالمية الثانية، كلغة، لأن الجزائر اعتبرت قسما من فرنسا. والمكان الوحيد، ولهذا معنى هام جدا حول وضع الجزائر حاليا، الذي كان ممكنا تعليم اللغة العربية فيه كان المسجد. كان الإسلام ولا يزال آخر ملجأ للوطنية. استلمت جبهة التحرير الوطني السلطة في عام (١٩٦٢) وأعادت اللغة العربية. وكان هنا (كما أعتقد) برنامج للتعريب أسيء تأويله، كان على الجميع أن يتعلموا

العربية، إن جيل بن بله وبومدين لم يعرف العربية إطلاقا. كانت لغتهم العملية هي الفرنسية. كانوا يتحدثون باللغة العامية ويستطيعون قراءة القرآن، ولكن لم يكونوا قادرين على استخدام العربية بالطريقة التي نستطيعها نحن في العالم العربي الشرقي. إذ كان عليهم تعلمها من جديد. في هذه الأثناء، أصبحت جبهة التحرير الوطني ليس حزبا للأمة فحسب بل للدولة. وباحتكارها للسلطة على مدى ثلاثين سنة، فقد أصبحت قوة تمرد عليها المؤمنون ومنه جاءت الجبهة الإسلامية للإنقاذ. وهي تكرار للتاريخ نفسه.

د.ب.: ذكرت مسؤولية المثقفين. من هي الطبقة التي تقدم هذه الاحتجاجات على الأدب الذي تدعي أنت أنه يفتقر إلى كل هذه الأمور، من يتطلع إلى كامو ويختزن النقاط الجوهرية. إنهم يفسرون شيئا ما تقول أنت إنه موجود، وهو موجود على نحو ممكن البرهنة عليه، وهم لا يرونه.

إ.س.: لا أستطيع بالفعل التعميم من خلال مصطلح الطبقة. ولكني أستطيع بالتأكيد القول إن واحدا من الأمور التي تمكنك من قراءة هذه الأمور وتجعلك تهتم بها، هو تجربة إزالة الاستعمار. أعتقد انك لو عشت خلال فترة النزاع الكولونيالي، تستطيع العودة إلى هذه النصوص وقراءتها بطريقة حساسة لهذه النقاط بالضبط التي يتم تجاهلها عادة. وإذا شعرت، من ناحية أخرى، أن الأدب أدب فحسب ولا علاقة له بأي شيء آخر، عندها تصبح وظيفتك فصل الأدب عن العالم وبمعنى من المعاني، اعتقد أن هذا يشوهه ويبتره عن تلك النواحي التي تجعله أكثر إثارة للاهتمام ودنيوية وأكثر في كونه جزءا من النزاع الذي كان قائما.

أنا لا أدعو إلى، بل أعارض تماما، تدريس الأدب كشكل من أشكال السياسة. أعتقد أن هناك تمييزا بين المنشورات والروايات. لا أعتقد أن قاعة الدرس يجب أن تتحول إلى مكان للدعوة إلى الأفكار السياسية. لم

يسبق لي أن درست الأفكار السياسية في قاعة الدرس. أعتقد أن مهمتي هناك هو تدريسُ تفسير وقراءة النصوص الأدبية.

د.ب.: ولكنها سياسية.

إ.س.: بمعنى واحد فحسب: إنها سياسة ضد قراءة الأدب وهذا من شأنه أن يعريه ويخصي ما يناقش في الأدب على نحو عميق.

د.ب.: ولكن كأستاذ تقوم أنت بخيارات معينة.

إ.س.: بالطبع. كلنا يفعل ذلك. لا أنكر ذلك. إنه اختيار يقترح قراءة مختلفة لهذه الأعمال الكلاسيكية. لا أقول إطلاقا إنها القراءة الوحيدة. بل أقول فحسب إنها قراءة ذات صلة، وهي القراءة التي لم ينصب عليها الاهتمام. ولا انوي بالتأكيد أن أفرض قراءتي على الطلاب، وذلك لأني اعتقد أن الحرية الأكاديمية مركزية في هذه القضية، ثم أن أقول لهم إذا لم تقرأوا الأمر بهذا الأسلوب فأنتم مقصرون. العكس هو الصحيح تماما. أريد أن أثير تحقيقات جديدة ومجددة لهذه النصوص بطرق تجعلها تقرأ على نحو أكثر تشكيكا، أكثر استفسارا وأكثر بحثا. هذه هي المسألة.

د.ب.: هناك قطعتان كتبتا حول مسؤولية المثقفين، وقد كتب إحداهما «تشومسكي»، وذلك حول النطق بالحقيقة أمام السلطة، ويقول «جوليان بندا» في «خيانة الكتبة» في عام (١٩٢٨): «الخيانة هي قبولهم بأن النشاط الفكري يمكن أن يشد إلى النير السياسي والقومي والعنصري». ويمكنني أن أضيف إلى ذلك: ولم لا؟ إنهم يكافأون جيدا ويحتفل بهم بلعب الكرة مع الثقافة السائدة.

إ.س.: إحدى المآسي العظيمة هي ما حدث في «العالم الثالث»، بداية نهوض القومية. هناك فرق بين قومية كالتي نراها في أمريكا اليوم، القومية من النوع الانتصاري، إذ نروح نحن نتبجح - ولا اعرف من هم «نحن» هنا - بانتصارنا في الحرب الباردة، وحقنا بالتدخل في العراق

وبنما، وهذا ما تطرق إليه «فانون» في «المعذبون في الأرض»، أي القومية التي تقاوم الاستعمار والإمبريالية. ولكن ما يهمني كثيرا هو أنه حين تنتصر القومية، ويتم نيل الاستقلال، فغالبا تغرق الوطنية عائدة إلى نوع من القبلية والسلفية والسكونية، ويصبح لها بذلك أيضا، مثلا في أنحاء كثيرة من العالم العربي اليوم، شكل الدولة الإمبريالية الجديدة، التي ما تزال تتحكم بها القوى الخارجية لتي تكون فيها الصفوة الحاكمة بالفعل وكلاء وزبائن لواحدة من القوى المهيمنة. هذا ما أعتقد كان أمرا تنبأ به بعناية كثير من الكتاب القوميين الأوائل في العالم الثالث. وهذا أمر غالبا ما ينسى. وهناك أشخاص مثل «إيلي قدوري» وغيره في الغرب يحاججون دوما بأن القومية اختراع «غربي». إن ما لديك الآن في أماكن كالجزائر والهند هي تقليد للغرب. ولكن الأمر الهام هو أنك لو نظرت بعناية إلى تاريخ هذا النوع من القومية المقاومة التي أناقشها في الكتاب، لوجدت أن كثيرا من الموالين الأوائل حذروا من إساءة استخدام القومية. مثلا يقول «فانون»: «لن نقوم بهذه الثورة ضد الفرنسيين حتى نستبدل برجال الشرطة الفرنسية رجال الشرطة الجزائرية». الأمر ليس هكذا. نحن نتطلع إلى التحرير. التحرير أكثر بكثير من مجرد أن نصبح صورة طبق الأصل عن الرجل الأبيض الذي طردناه ونقوم باستبداله واستخدام سلطته. لذلك أنا مهتم جدا بهذا التمييز بين الحرية ونوع من الوطنية الغبية.

د.ب.: أنت تشير أيضا إلى أن النظرية الإمبريالية التي تكمن تحت الغزو الاستعماري لازالت مستمرة اليوم. كيف تعبر عن نفسها في الثقافة في يومنا هذا؟

إ.س.: في الكتاب أتحدث على نحو رئيسي عن النطاق العمومي في أمريكا. أولا هناك معنى معبر عنه جيدا يتعلق بالمهمة الدولية بعد الحرب العالمية الثانية حيث فكرت الولايات المتحدة بنفسها على أنها وريثة

البريطانيين والفرنسيين، الإمبراطوريتين الغربيتين الكبريين. هكذا كان الحال بكل تأكيد في أمريكا اللاتينية وجنوب شرقي آسيا، حيث حذت الولايات المتحدة بالفعل حذو القوى الاستعمارية الأخرى. وفي حالة فييتنام، فإنها حذت حذو الفرنسيين وسارت في المسار الكارثي نفسه. الدورة الواحدة من التاريخ الإمبريالي تتبع الأخرى.

ثانيا، لقد بدأت بالانتشار أيضا في وسائل الإعلام وفي الوسط الأكاديمي فكرة وجود نظرية كاملة للعلم التطويري الأمريكي، والمنظرين التطويريين لعقد الخمسينات والستينات من هذا القرن، فكرة أن علينا أن ندخل العالم ونطور من هو غير متطور. علينا أن نزودهم بنماذج الانطلاقة الاقتصادية، فكرة «وولت روستوف» وقد حاكاها على سبيل السخرية وعلى نحو لامع جدا «غراهام غرين» في روايته «*الأمريكي الهادئ*» التي هي بالفعل أهجوة للحرب الباردة، للأمريكي في فيتنام، شخصية «بايل» التي تطرح بالفعل البديل أو الطريق الثالث. لا الطريق الاستعماري ولا الطريق الشيوعي - إيديولوجيا الحرب الباردة هامة جدا هنا - بل هناك طريق ثالث، طريقنا نحن. وهذا يعطي كثيرا من السياسات والثورات، وهنا يفكر المرء بإندونيسيا، بالفيليبين، بالشرق الأوسط وأجزاء مختلفة منه في عام (١٩٥٨)، أول التدخلات الأمريكية بعد الحرب، والتي بدأت فعلا في تركيا واليونان بعد الحرب العالمية الثانية، وفكرة أن أمريكا هي شرطي العالم.

ثالثا، تجد ذلك في الخطاب العمومي لوزارة الخارجية الأمريكية والنخبة الثقافية في هذا البلد. لدينا مهمة في هذا العالم. وتردد وسائل الإعلام صداها مرة إثر أخرى. افتراضات وسائل الإعلام هي إننا المراقبون الحياديون للعالم وأن هناك معنى يكون فيه الصحفي شاهدا على القوة ومبعوثا للولايات المتحدة في هذه الأماكن، كبغداد مثلا.

والنتيجة نظام إيديولوجي قوي جدا، وقد تحدث تشو مسكي عن

هذا على نحو لامع، وأعتقد انه مركزي في ثقافة كل أمريكي. وهذا مبني على مقدار كبير من الجهل ببقية العالم ومقدار ضئيل جدا من المعرفة الجغرافية عن بقية العالم. وأحد أهم الفروق الهامة بين أمريكا والإمبراطوريات الكلاسيكية في القرن التاسع عشر في بريطانيا وفرنسا هو أن هناك أولا وقبل كل شيء التجاور والامتداد. كان هناك معنى في أن فرنسا كانت قريبة من جنوب أفريقيا. كانت هناك علاقة بين إنكلترا والإمبراطورية في الشرق عبر السويس، الخليج،الخ. وكانت هنا مؤسسة استعمارية، ولم يكن لدى أمريكا أي شيء من هذا. هناك على العكس من ذلك خبرة مجردة، أشخاص يتعلمون تقنيات العلوم الاجتماعية، ويستطيعون استخدام الأرقام والكومبيوترات الخ، ولكن لديهم جهل جغرافي هائل. الولايات المتحدة دولة معزولة بشدة وشديدة الإقليمية من نواح كثيرة. وهي تنتج هؤلاء الخبراء الذين يعاد تنظيمهم للخدمة أولا في فيتنام، في أمريكا اللاتينية وفي الشرق الأوسط. والنتيجة هي سياسة عنف من ناحية ونوع من الترنح اللامتسق والذي ينتهي بنتائج ضارة إلى حد هائل. ينسى معظم الأمريكيين، وكثير من الطلاب لا يعرفون حتى ما حدث في فيتنام، أن الولايات المتحدة مسؤولة عن إزهاق حياة مليون فيتنامي. هذا أمر منسي. قال «جيمي كارتر» إنها حالة من «التدمير المتبادل». ليس هناك مجال للمقارنة بين التدمير الذي حصل في فيتنام والخسائر التي تكبدتها الولايات المتحدة كقوة إمبريالية غازية.

د.ب.: هناك أشخاص شأن «في. إس. نايبول» يقولون: إن الأمر كله قد انتهى. الإمبريالية قد انتهت. نحن الآن في عصر جديد وانظر إلى هذه الفوضى. في عمله الذي غالبا ما يقتبس منه «*بين المؤمنين*»، هاهو «نايبول» الروائي يعرض نفسه كإسلامي، كعالم اجتماع ونفس. فهو يسافر إلى إيران وباكستان وإندونيسيا وماليزيا. وهو يصف المسلمين هكذا: ' إن غضبهم، غضب الشعب الرعوي ذي المهارات المحدودة،

والأموال المحدودة والفهم المحدود للعالم، لهو غضب شامل. والآن لديهم سلاح،هو الإسلام. وهو طريقتهم في «لانتقام من العالم. وهو يخدم حزنهم وشعورهم بعدم الكفاءة وغضبهم الاجتماعي وحقدهم العنصري.»

إ.س.: «نايبول» شخصية مثيرة للاهتمام. أولا هو كاتب موهوب جدا. لاشك في هذا. وهو أيضا شخص له وجهة نظر، وحالة رائعة للبحث. وكما فعل «آيرفينغ هاو» حين راجع رواية «*منحنى في النهر*» حين صدرت في عام (١٩٧٩)، وذلك في «النيويورك تايمز» قال: هذا رجل من العالم الثالث. إنه هندي، من شبه القارة، ولكن أسرته عاشت في ترينيداد وترعرع هو هناك. وهو يذكر مع أشخاص مثل «فؤاد عجمي» كشهود. إنهم يعرفون ما يتحدثون عنه. وهم يقولون إن المكان عبارة عن فوضى قذرة. ويشجع نايبول ذلك.

ليست لدي مشكلة في أن يقول نايبول الأمور التي يريد أن يقولها. كل شخص يحق له أن يقول ما يراه. وبالطبع فإن دليل معانيه هو على هذا النحو. ونعرف على أي حال انه مسافر شديد الكسل، ومعلوماته حول الدول التي يزورها غير كاملة إطلاقا. عليه أن يكتب وينشر، واعتقد أن على الناس أن يقرؤوه وينتقدوه. ولكن على المرء أن يتمتع ببعض الوعي بأمرين مهلكين على نحو خاص يرتكبهما هو. أولا انه لا يعطي صورة كاملة عن التاريخ الذي أنتج في كثير من الحالات الفوضى الحقيقية التي نجدها في دول كإيران. ليست إيران مجرد مكان حيث هناك ظهور مجاني للإسلام. بل يأتي هذا الأمر بعد تاريخ خاص مع الغرب، بعد مواجهة مطولة وخاسرة. حروب الأفيون وحكم الشاه. إن ما لدينا الآن في إيران هو استجابة لذلك. لذا فهو يفوت هذا بالكامل. إنه يهمل هذه الأمور. إنه يجعل الأمر يبدو وكأن هذه ميزات إسلامية جوهريا.

وثانيا ما هو أهم بكثير هو أن نايبول لا يعطينا أبدا أي إشارة إلى أن هناك أي شيء آخر في هذه البلدان ماعدا ذلك. الإسلام الآن هو

بعبع الغرب. في هذا الصيف الأخير كان هناك مانشيت في «الواشنطن بوست» يقول إن الإسلام قد حل محل الشيوعية كعدو للغرب.تصبح هذه الفكرة عن شكل مونوليثي غير مميز ولا يمكن في النهاية أن يسمى الإسلام، مكمنا لكل الشرور في العالم وذلك بدون وعي -وهذه هي المسألة الهامة- ليس فقط بالصفة المونولوثية ولكن بأنه توجد ضمن الإسلام والعالم الإسلامي الكثير من التيارات والمعارضات. هناك أشخاص لا دينيون يحاولون أن يحاربوا الأخويات والجهادات وأحزاب الله وحماس. هذه هي أمور تختلف فيما بينها الواحد عن الآخر. حماس مختلفة تماما عن حزب الله. الحركة في السودان التي يقودها حسن الترابي مختلفة تماما عن الإخوان المسلمين في مصر، وهذا دواليك.

ليس هناك سوى اهتمام ضئيل جدا في الأشكال الأخرى الأصولية المتواجدة. مثلا، هناك أصولية يهودية. إسرائيل بلد أصولي، وهي من نواح كثيرة ترعبني كوني غير يهودي، كما هي إيران. هذا لاينا قش إطلاقا وهو أمر ضار. ما يحكم إسرائيل هو القوانين الثيوقراطية (الكهنوتية) التي تحرم أشياء معينة في يوم السبت، وتحظر الموسيقى لأنها تعتبر مسيحية جدا، في بعض الأمثلة، والتي تحرم مؤلفين موسيقيين من أمثال فاغنر وتضع قوانين صارمة جدا حول من هو يهودي ومن هو غير يهودي، الخ. هذا مستثنى تماما من النقاش السائد. أنا شخص لا ديني. أنا ضد أي نوع من السياسة الدينية.ولكني لست وحيدا. وإذا ما راح أحدهم يتحدث عن الإسلام بأسلوب نايبول، فعليه أن يتحدث عنه ضمن سياق اكثر ملاءة وصدقا من ذاك الذي يطبقه هو. لأنه في النهاية هناك نوع من الانتهازية، لأن الكتاب سيبيع والأمر اسهل على هذا النحو.

د.ب.: إلام تعزو هذه الجاذبية التي للإسلام في بعض الدول اليوم كالجزائر والأردن وتونس ومصر خاصة، حيث هناك مشاكل خطيرة جدا؟

إ.س.: أعتقد أولا أن السبب كله هو فشل حركات التحديث اللادينية التي وصلت إلى السلطة بعد الحرب العالمية الثانية كردة فعل على الإمبريالية. لقد جلبت هذه حلولا قليلة جدا. لم تكن قادرة على مواجهة الانفجار السكاني. لم تكن قادرة على مواجهة دمقرطة ومنح السلطات للشعب كما حدث بعد التحرير. مثلا، في مصر، وللمرة الأولى في التاريخ المصري، أصبح يحق لكل مصري أن ينال التعليم الكامل. إن ما ينسى غالبا هو أن الإحياء الإسلامي يأتي على أعقاب ونتيجة للحملة الناجحة إلى حد هائل ضد الأمية. هذه حركات لا يديرها أميون. بل يديرها أطباء ومحامون. هذه الحركات الإسلامية التي هي مختلفة جدا في الغالب في كل مكان، غالبا ما تواجه بثقافة لا دينية نشيطة تماما.

وعلى نحو حاسم فان هذه الحركات تجري في دول كمصر والجزائر والأردن والعربية السعودية يعتبر حكامها حلفاء للغرب. هذا الشعور بالغربة الذي يحس به الناس في مصر التي رأت السادات والولايات المتحدة تدلله، ورأته يصنع سلاما مع إسرائيل ويبيع حصانته، وذلك مع الكثير من البهرجة والإتقان العظيم للعلاقات العامة، وهذا باعتراف الجميع. ولكن على الرغم من ذلك، فانه تخلى عن الكثير من الأفضليات المصرية لصالح الأفضليات التي حددتها الولايات المتحدة.وهذا يولد شعورا ليس باليأس والقنوط فحسب، بل شعور بالغضب الذي تغذيه تلك الحركات الإسلامية.

وأخيرا وهنا المسألة الأهم فإن الإحياء الإسلامي في العالم العربي يحدث في دول ألغيت فيها الديموقراطية بسبب أفضليات دولة الأمن القومي. وهنا تلعب إسرائيل دورا هاما جدا. إن وجود إسرائيل - وهي دولة ثيوقراطية عسكرية، إسبارطة فرضت على المنطقة - لا أتحدث فقط عن الفلسطينيين، التي دمرت إسرائيل مجتمعهم وبلدهم وأرضهم المحتلة منذ أكثر من خمس وعشرين سنة - ولكن أيضا عن غزوات

إسرائيل وغاراتها على لبنان والأردن وسورية وتونس. لقد حلقت طائراتها فوق العربية السعودية في كثير من المرات. ولقد هاجمت العراق. إسرائيل قوة إقليمية عظمى. هذا المعنى لإسرائيل وقيام الولايات المتحدة بالتضحية بالأرض العربية عن قصد قد أجبر الناس على العودة إلى الجذور المغذية في الثقافة الوطنية التي هي إسلامية.

د.ب.: نوع من رد الفعل المحلي الطبيعي.

إ.س.: إنه رد فعل على ذلك. وهو رد خاطئ على نحو عميق في رأيي. في حالات كثيرة هو رجعي. ولكن لها أهداف موضوعية. إنها ليست بالجوهر شريرة كما تصور عادة في الصحافة هنا. أنت تقرأ برنارد لويس وهو يتحدث عن «جذور الغضب الإسلامي» في «أتلانتيك الشهرية»، ويصل إليك المعنى الذي يفيد أن المسلمين مجانين وضد الحداثة، وكأن الحداثة هي نوع من القوة الغامضة التي يريدون مهاجمتها ولعنها وذلك للعودة إلى القرن السابع.هذا جزء من الصورة. أوصاف الإسلام في الغرب جزء من المشكلة نفسها التي يحاربها المسلمون في كل أنحاء العالم العربي والعالم الإسلامي عموما، سواء كان ذلك في باكستان أو بنغلادش أو إيران. لم يبذل سوى القليل جدا من الاهتمام لفهم الإسلام ومعنى الرغبة في إجراء حوار معه. العكس هو الصحيح: هناك حشود هائلة من الصحفيين، وهنا في رأيي الكسل والعادية في وسائل الإعلام الغربية، وهما أمران تلام عليهما بشدة، وكذلك ما يسمى بالخبراء المثقفين الذين يستسلمون لهذا النوع من الأمور. إن عماهم الرئيسي، سواء عبر الأفلام التلفزيونية الوثائقية العادية والبرامج الإخبارية التي نراها، هو التقصير والضغط والإنقاص وحتى الكاريكاتير أيضا ليعطوا انطباعا سليما. وتستطيع حتى أن ترى هذا في الأفلام. أتذكر أنه في الأسبوع السابق على عيد الميلاد شاهدت ثلاثة أفلام على الأقل، وكان أحدها «دلتا فورس»، وذلك على التلفزيون، وكانت كلها تدور

حول قتل «الإرهابيين» الذين هم من المسلمين والعرب في آن واحد. إن فكرة قتل العرب والمسلمين تشرعها الآن الثقافة الشعبية. هذا جزء من الجو الذي نحتاج إلى أن ننظر إليه.

د. ب. أنا شديد الاهتمام بذكر الثقافة الشعبية. الناس تفهمك كشخص منغمس في الثقافة الرفيعة. أنت أكاديمي. ولكن أجل، هناك «دلتا فورس». ثم هناك «النسر الحديدي» الذي هو واحد من أكثر أفلام هذا النوع استثنائية. لقد طلب الي أن أتحدث عن أساليب تمثيل العرب و الإسلام في وسائل الإعلام في جامعة كولومبيا في «بولدر» خلال ما سمي ب «أسبوع الوعي العربي». لذلك شاهدت عددا كبيرا من أفلام الفيديو ودققت فيها. في «النسر الحديدي» يسرق مراهق أمريكي طائرة «ف١٦» من أريزونا ويطير بها على نحو ما دون توقف إلى الشرق الأوسط، وهذا إنجاز هائل. يقتل جيشا بأكمله من العرب المتعصبين الذين كانوا يحتجزون أباه رهينة. وهو ينقذ أباه ويعيده إلى أريزونا. أما فيلمي المفضل فهو «يوم الأحد الأسود». العرب لا يتنازلون عن أي شيء. هذا هو المطلق في نشاط مشؤوم: إنهم يريدون تعطيل وتخريب «الكأس السوبر»، فاتيكان الثقافة الأمريكية. هناك سلسلة كاملة من هذه الأفلام. الإرهابيون غير كفؤين إلى حد بعيد بالصدفة. لا يستطيعون إصابة الهدف. لا يستطيعون تشغيل المعدات. هناك أمريكي واحد أو إسرائيلي واحد يصد مائة إرهابي من العرب.

إ. س. بالمناسبة، لا أعرف إن كنت مطلعا على ذلك، ولكن معظم الإرهابيين، المسلمين والعرب، يلعب أدوارهم إسرائيليون. هذا أمر مذهل تماما. إنهم لا يستخدمون ممثلين عربا إطلاقا. لا أعتقد أنهم يستطيعون أن يجدوا أي ممثلين من العرب يلعبون مثل هذه الأدوار. هناك صناعة صغيرة إنما مزدهرة في إسرائيل لإنتاج الكومبارس والبدلاء لهذه الأدوار، ويلعب هؤلاء أدوار العرب الذين يصابون بالرصاص ويقتلون.

اثنان أو ثلاثة من الأمريكيين مقابل مئات وربما آلاف من العرب الذين لا يستطيعون أن يقوموا بأي عمل صحيح.

د. ب. وعلاوة على تصويرهم على أنهم غير كفؤين إطلاقا، فإن العرب لا يتبادلون حوارا عاديا أبدا. إنهم يصرخون الواحد على الآخر. إنهم ينبحون ويصيحون.

إ. س.: على الأرجح أن كل هذا ينسب في الذهن الشعبي، كما هو، إلى اللعنات القرآنية، الشتائم القرآنية. هذا هو كل ما ينطقون به. وكلمة «قرآني» رائعة لأنها تشمل تقريبا كل ما لا تحبه.

د. ب. كانت هناك أفلام متوسطة المستوى، أفلام مثل «لورنس العرب» و«السماء الواقية». ويستمر هذا النمط. وهناك فيلم «ألعاب وطنية» وهو فيلم جديد يمثل فيه هاريسون فورد وفيه يتدرب إرهابيو «الجيش الايرلندي الجمهوري» على يد ليبيين في الصحراء. لقد علقت قائلا إن هناك بضع كلمات عربية قد دخلت اللغة الإنكليزية في القرن العشرين مثل «جهاد» و«انتفاضة» و«حريم» و«شيخ». أعتقد أن هذا يظهر حقا التباين: العنف والحسية.

إ.س.: «الانتفاضة» كلمة جديدة ارتبطت بانتفاضة سياسية محددة، وأعتقد عموما أنها إيجابية، تمرد ضد الاحتلال الاستعماري. لقد تم تبنيها خلال بعض الانتفاضات العظيمة في العالم الثالث والعالم الثاني، في أوربا الشرقية والعالم غير الأوربي عموما في نهاية الثمانينات. كان الناس في براغ يرتدون قمصان «تي شيرت» عليها عبارة «انتفاضة» في «الثورة المخملية». حين كنت في جنوب أفريقيا في العام الماضي، كان أحد الأمور المدهشة - وهذا يعود إلى حد كبير إلى أن مانديلا أوجد الصلة - هو الحس الدافئ جدا بالترابط بين الفلسطينيين الذين يقاتلون ضد الاحتلال الإسرائيلي والنضال ضد الأبارتهيد في جنوب أفريقيا. كانت «الانتفاضة» فعلا نقطة حاسمة.

د. ب. خلال عملية التحضير لذلك الحوار الذي ذكرته، ذهبت إلى المكتبة العمومية للقيام ببعض البحث. «بولدر» مدينة ليبرالية وتقدمية إلى حد معتدل. لقد اكتشفت أن لديهم (٢٥٧) كتابا حول المسيحية و (١٦٠) كتابا عن اليهودية و (٦٣) كتابا عن الإسلام. فإذا أخذنا في الاعتبار حقيقة أن هناك عدد قليل جدا من المسلمين في «بولدر»، فإني سأقول إن هذا اختيار كريم جدا من الكتب حول الإسلام. ولكنك تنظر بعد ذلك إلى بعض العناوين فتصل إلى نتائج أخرى. بعضها كان: «*القنبلة الإسلامية*» و«*الإسلام المحارب*» و«*الرعب المقدس: داخل عالم الرعب الإسلامي*»، «*الغضب المقدس*»، «*الحملة الصليبية للإسلام المعاصر*»، «*بين المؤمنين*»، وكتاب «نايبول» وكتابي المفضل «*قطاع الطرق في الإسلام*». ثم نظرت إلى العناوين المسيحية واليهودية متوقعا أن أجد «القنبلة اليهودية» و«قطاع الطرق في المسيحية»، ولكني لم أجد أيا منها.

إ.س.: أعتقد أن لدينا معنى هنا كنت أنا شديد الانتقاد له، وذلك لكل من هذه الظاهرة التي تتحدث عنها وأيضا للناحية الأخرى. فالعالم العربي والإسلامي لم يبذل اهتماما كافيا لهذا. لابد من جهد يقوم به المثقفون العرب أو الإسلاميون لمخاطبة الغرب. فالكتب التي تشير إليها يجب أن تفند بالطبع. ولكن يجب أن تجري محاولة لطرح وجهة نظر بديلة عن الإسلام لا تفند فحسب هذه الأمور ولكنها تجسد واقع الإسلام، وهو واقع متنوع جدا، ومعتدل تماما إجمالا. وقد كنت مهتما خلال الاحتفال بذكرى مرور خمسمائة عام (١٤٩٢ -١٩٩٢) في العام الماضي بأنه لم يبذل سوى جهد صغير من قبل الدول العربية في الغرب وذلك لوصف الحضارة الأندلسية، وهي واحدة من القمم العالية في المغامرة الإنسانية بسبب عالميتها، وروعة الإنجازات الجمالية والفكرية، وكذلك لأنها قدمت نوعا من النموذج المضاد عن الإسلام الذي يحاجج

اليوم بأنه النموذج الجوهري له. أي الإسلام الذي ليس متسامحاً فحسب ولكنه الإسلام الذي شجع على تعايش الطوائف المختلفة. هذا هو النموذج.

مقابل هذا، أفكر بصورة عامة أنه بسبب النزاع بين الفلسطينيين وإسرائيل، فإن وجهة نظر جديدة عن الإسلام قد برزت على أنه متعصب ورجعي على نحو جوهري وفوق كل هذا فإنه دين شوفيني لا يستطيع تحمل الآخر. ولكن هناك فرق بين «غريب» في المعنى العام وهي الطريقة التي يتحدث بها دائماً «برنارد لويس» حول الأمر، و«الغريب» كما تمثله إسرائيل، فإسرائيل على أي حال غزوة ليس ضد ارض عربية ولكن ضد ارض كانت عالمية الهوى.

حين نشأت في فلسطين كانت مكاناً تعيش فيه ثلاثة أديان، ربما ليس على نحو كامل ولكنه بالتأكيد افضل مما هي الحال في أوربا في الوقت نفسه. لقد ولدت في نهاية عام (١٩٣٥). خلال تلك الفترة، وبينما كان اليهود على وشك أن يذبحوا في أوربا، كانت هناك مجموعات سكانية صغيرة من اليهود في فلسطين، وفي الوقت الذي لم يكن أحد يدري انهم كانوا يخططون ليصبحوا مجموعات اكبر بكثير وفي الواقع الاستيلاء على البلد من سكانها الأصليين، أعني الفلسطينيين. ولكن بدلاً عن ذلك تحصل على صورة عن الإسلام المصمّم على تدمير «الآخر». هذه الصورة المتواصلة عن الإسلام لم يتم الرد عليها بعد في رأيي من قبل المسلمين أنفسهم في الغرب، الذين يعتقدون أنها مجرد دعاية. أنا شديد الانتقاد للدول العربية، مثلاً، في سياستها الإعلامية التي لاتقول إن هذا ليس خطأ فحسب بل إنه في الواقع أمر يمكن للمرء أن يجادل به. أنا متفائل. أعتقد أنه من الممكن جعل الناس يغيرون آراءهم وان المرور بتجربة وجهة نظر مختلفة وبديلة عن العالم الإسلامي والعربي يمكن في الحقيقة أن يفتح عقول الناس في الغرب على منظور جديد.

د. ب. هل لاحظت انه في كثير من الكليات والجامعات العربية. ليست هناك أقسام تدرس الولايات المتحدة؟

إ.س.: لا يوجد قسم واحد في أي جامعة عربية اليوم مكرسة حصراً لدراسة الغرب، أو الولايات المتحدة على وجه الخصوص. لقد ذكرت هذا في جامعة بيرزيت (الضفة الغربية) خلال رحلتي في حزيران (يونيو) ١٩٩٢. وقد قيل لي إن الأمر لا يتعلق فحسب بأنه ليس لدينا قسم للدراسات الأمريكية هنا، مع العلم أن الولايات المتحدة أكبر قوى خارجية في المنطقة، ولكن ليس لدينا حتى قسم للدراسات العبرية والإسرائيلية. وعلى أي حال فإسرائيل قوة محتلة ويجب أن يعطى بعض الاهتمام إلى الدراسة المنهجية للدولة ومجتمعها وهي تعتدي على الحياة العربية. هذا لم يحدث بعد. هذه كلها أجزاء من ميراث الإمبريالية.

د. ب. ولكن هناك نوعا من الشوفينية في ذلك أيضاً.

إ.س: إنها ليست شوفينية فحسب، ولكن هناك حساً معيناً بأنه ليس عليك تحدي الأمر. غياب التحدي يقلقني كثيراً. ما يميز الناس في العالم العربي المعاصر عن فترة الخمسينات والستينات من هذا القرن وبالتأكيد عن فترة الثلاثينات والأربعينات هو موقف الرغبة في تحدي الإمبريالية. الآن هناك خوف عظيم. يلجأ الفلسطينيون وآخرون إلى الولايات المتحدة وكأنها المحكمة ذات المرجع الأخير والصديق الحقيقي للعدالة. هناك وعي ضئيل جداً. بالتأكيد هذه هي الحال في المفاوضات في واشنطن ومدريد. هناك حسّ ضئيل جداً بتاريخ الولايات المتحدة. كان هناك «بيكر» الذي قال: «أوه نعم، نريدكم فعلاً في مباحثات السلام». كانت تلك بالفعل كلمة يمكن أن تؤخذ كقيمة ظاهرية، وقد نتجت عنها خيبة أمل هائلة.

د. ب.: قد يكون هذا تعميماً. لم أسافر كثيراً في العالم العربي، ولكن في الاتصالات التي أقمتها هناك حسّ بأن العرب، والفلسطينيين

خاصة، هم الطرف المظلوم، فقد ديس عليهم بوحشية. يمكنك أن تطرح قضية قوية في هذا الخصوص. وأن الحق إلى جانبهم وسيتم اكتشافه. ليس عليهم أن يطرحوا قضية قوية.

إ.س.: هذا صحيح على نحو مطلق، هناك إحساس بأن شعورك بأنك على حق وبمشروعية قضيتك يجعلك لا تقوم بأي نشاط إضافي.

د. ب.: «الله كريم» نوع من الفلسفة الثابتة.

إ.س.: موقف «غرامشيّ» جداً كما أعتقد.

د. ب.: فلننتقل إلى مقالة «هاربر» المنشورة في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٩٢ تحت عنوان: «فلسطين في ذلك الحين والآن». كانت مؤثرة جداً. لقد تأثرت بها جداً. كان هناك حس قوي بالحزن والأسف يتخلل المقالة. لقد استخدمت أنت مثل هذه الأوصاف: «حزين» و«كئيب» و«سوداوي». «عكا مكان حزين جداً». لقد كانت رحلة أشبه برحلة «دفن الأموات». كانت كشهادة. كنت تربط ولديك بماضيك.

إ.س.: ظننت أن الأمر يستحق أن يرى من قبلهما. فهما لم يزورا فلسطين أبداً من قبل. لم يشاهدا أبداً أين ولدت وترعرعت. لست من المؤمنين الكبار بالجذور، هذا لو تكلمت بصدق. أعتقد أن الجذور يمكن أن يُبالغ بها. ولكن فلسطين مكان غير عادي. سواء كنت منها أو لم تكن. إنها بالتأكيد شيء يؤثر عليك. لقد كان هناك اهتمام هائل، ويا للأسف، وهذا الكثير يعود إلى الدعاية الإسرائيلية، إلى الوضع في الشرق الأوسط. لذلك شب ولداي وهما يعرفان فلسطين على نحو أساسي عبر هذه الانعكاسات بالواسطة عن فلسطين والتي تراها في وسائل الأعلام وتقرأ عنها، وكونهما زارا كما حدث لهما دولاً كمصر ولبنان والأردن. كان لديهما حس الانتماء إلى مجتمع ولكن ليس حس خصوصية المجتمع الذي انتمي إليه والدهما. لذلك كان الأمر مهماً بهذا المعنى.

لقد وجدت الكتابة حول التجربة صعبة جداً. أعتقد أني حصلت

على ١٠ ٪ أو ١٥ ٪ من وابل الانطباعات التي تلقيتها والذكريات التي أثارتها تلك الرحلة. لقد كان هناك حوالي عشرة أيام، وذهبنا إلى كل مكان. لذا كان من الصعب الاختيار. كان هناك شعوران متناقضان عموماً. كان أحدهما شعور بالمتعة للعودة إلى مكان كنت لا أزال قادرا على تمييزه بمعنى من المعاني. كنت واعياً بالمدى الذي تحولت فيه فلسطين إلى إسرائيل. لست من الضفة الغربية، ولكن مما اصبح إسرائيل في عام (١٩٤٨)، أنا من القدس الغربية من «طالبية». أمي من الناصرة التي هي أيضاً جزء من إسرائيل. أتذكر حيفا ويافا، هذه هي جغرافيا طفولتي. وان أرى أنها بقيت حية وأن هناك وجودا عربيا مميّزا هناك، رغم كل الثورانات والتحولات الهائلة في الأربعين سنة الماضية كان أمراً مشجعاً.

من ناحية أخرى، كان من الصعب علي جداً أن ألاحظ الطريقة التي أصبح بها المكان بلداً آخر، في بعض الأمثلة متحولاً إلى نوع من البلد الأوربي الصنعي. تبدو «طالبية» كضاحية أنيقة من ضواحي زيوريخ. لم يكن هناك أي عرب فيها. ذهبنا إلى صفد حيث اعتاد عمي أن يعيش، بلدة اعتدنا زيارتها، وكان ذلك للمرة الأخيرة في عام (١٩٤٦). وقد زرتها في عام (١٩٩٢)، أي بعد ستة وأربعين عاماً، ولم أر فيها عربياً واحداً. لقد طردوا منها جميعاً. إذن هذه مواقع كارثة بالنسبة إلي. بالطبع في الاقتصاد السياسي العام للذاكرة والتذكر الذي يبقى في الثقافة الشعبية في الغرب،لا مجال هناك للتجربة الفلسطينية المتعلقة بالخسارة. لذلك كان الأمر صعباً جداً.

وقد أضيف على نحو مثير للاهتمام أن المقالة التي رأيتها في «هاربرز» قد لقيت عدداً من ردود الفعل من أصدقاء كتبوا يقولون لي كم استمتعوا بقراءتها وكيف حركت مشاعرهم وكيف أحزنتهم. ولكن الأمر الذي كنت غير مستعد له هو انه بدا مغيظاً لكثير من مؤيدي إسرائيل، الذين كتبوا أكثر الرسائل غضباً وترويعاً. وعلى أي حال، فأنا كنت أصف

رحلة فحسب. كانوا غاضبين لمجرد أنني ذكرت أي شيء مشابه لذلك. أحد الأشخاص الذي ادعى أنه طبيب نفساني، مثلاً، وصف لي مستشفى للعلاج النفسي، وأنه يجب أن يحبس عليّ فيه. كما اتهمني آخرون بالكذب. إنها أكثر الدعايات استثنائية، رسائل هيستيرية مسعورة أرسلت إلى «هاربرز» وإليّ. وهي تكشف المدى الذي لا يكون فيه مقبولاً ببساطة وجود صوت فلسطيني أو حكاية فلسطينية. أعتقد أنه يجب أن يُلاحظ أنه لا يزال غير مسموح له بالوجود، حتى لو كان هذا الخطاب مسؤولاً عن تدمير فلسطين والأهوال التي انصبت على شعب تعداده خمسة ملايين شخص اليوم. ليست هناك مسؤوليته يتحملها أحد. أجد هذا مثبطاً جداً للهمة.

د. ب.: أعتقد انك قد لا تعطي موقفك حقه. أتذكر حين جئت إلى «بولدر» في عام (١٩٩٠) ودُهشت لأن حديثك كان محاصراً وكان الناس يوزعون منشورات تشجبك. أنت شخصية هامة وسوف تجذب مثل هذا الاهتمام.

إ.س. ولكن حتى لو كان الأمر كذلك، فإنه سيصدمني على انه غير إنساني ومتعصّب. لو فعل المسلمون ذلك، كما فعلوا، مثلاً، بسلمان رشدي، لكانت هناك جوقة من الاحتجاج تقول: لا يمكنك أن تمنع شخصاً ما من الكلام. ولكن هذا يستمر ضد الفلسطينيين. هناك محاولات حثيثة لإسكات وللحطّ من وابتزاز أي شخص يتجرأ على قول الحقيقة وتحويل حياته إلى بؤس. وأجد هذا مروعاً على نحو مطلق. وخاصة أنه يرافق منذ مدة طويلة من الزمن بورع أخلاقي حول ضرورة تذكر أهوال الماضي والتجربة اليهودية وأنا أوافق على ذلك تماماً. ولكن لو تجرأت وقلت شيئاً ما حول هولوكست مصاحب، ربما ليس هولوكست وإنما كارثة، نسميها نحن «النكبة»، والتي جرت لنا نتيجة للهولوكوست، ألا وهي تدمير فلسطين، فهذا غير مسموح به والعنف والغضب والسم الذي يتم قذفه

مرعب.

د. ب.: لنعد إلى زيارتك إلى إسرائيل وفلسطين. تصل أنت إلى مطار اللد، خارج تل أبيب. هناك حس هائل بالخوف والقلق. يقابلك محمد معياري، وهو عضو عربي إسرائيلي في الكنيست.

إ.س.: حدث هذا حوالي عشرة أيام قبل الانتخابات. لسوء الحظ لم ينتخب معياري مجددا.

د. ب.: ولكنك لاحظت السهولة التي يتحدث فيها بالعبرية والتي يتحرك بها بين الإسرائيليين، وقلت: «كنت أتعلم حقيقة الأمور.» ولكنك لم تتابع ذلك بالفعل. لماذا؟

إ.س.: لقد كان من الصعب وصفه. لقد اعتقدت أن الفلسطينيين يعيشون، وهم كذلك بالفعل، كسكان من الأقلية التابعة في بلدهم. القرى العربية داخل إسرائيل أفقر. التعليم يعطى أموالا اقل من تعليم المواطنين اليهود في إسرائيل. ومع ذلك فإن ما لم أكن مستعدا له كان الحس العام، وأنا لن اسميه تحديا، وفيه يعيش الفلسطينيون الذين هم مواطنون إسرائيليون في الدولة بأسلوب منافس. ولكنهم ليسوا خانعين وأذلاء إطلاقا. هناك حد معين من المقارنة يبذلونه. معياري مثال كامل لذلك. إنه مقاتل في الكنيست. وهو ينتمي إلى أقلية صغيرة من خمسة أو ستة أعضاء فلسطينيين في البرلمان اليهودي على نحو طاغ، الكنيست، ولكنه بعيد جدا عن كونه صامتا. أنا لم يسبق لي أن رأيت فلسطينيين مع إسرائيليين داخل

إسرائيل،، وقد دهشت وتشجعت. إنها ملاحظة دنيوية، ولكنني رأيت أنها رائعة تماما. وكنت أظن أن الفلسطينيين سيحاولون أن يكونوا غير متطفلين. لم اشعر بذلك أبدا. شعرت أن الفلسطينيين داخل إسرائيل يتصرفون ويتكلمون وكأن البلد بلدهم. لم يكونوا هناك بسبب التسامح أو السماح. إنهم هناك لأنهم ينتمون إلى المكان. كنت سعيدا

برؤية ذلك. وقد شعرت بكل تأكيد أن عليهم أن يشعروا ويتصرفوا بتلك الطريقة وقد فعلوا ذلك. لم تكن لدي أي فكرة كيف كانت عليه الأمور.

د. ب.: زيارة منزل أسرتك في القدس موصوفة بلغة لاذعة جداً. من دواعي السخرية أن «سويفت» كان سيحبّذ ذلك، فالمنزل الذي ولدت فيه يؤوي الآن «السفارة المسيحية الدولية»، وهي مجموعة مسيحية أصولية مؤيدة للصهيونية. قلت: «تملكني الغضب والحزن، لذا حين خرجت امرأة أمريكية من المنزل وذراعاها مليئتان بالملابس المغسولة وسألت إن كانت تستطيع تقديم المساعدة، لم استطع أن أجبر نفسي على طلب السماح بالدخول».

إ.س.: كان هذا المكان الوحيد الذي شعرت فيه أني لم أتغلغل فيه بما فيه الكفاية في ماضيّ. شعرت بهذا في كل فلسطين وإسرائيل، حين كنا نتجول حول المواقع التي كانت هامة لي سواء للذكرى أو أماكن كالخليل بسبب ارتباطاتها السياسية والأكثر حداثة. لقد توغلت في تلك الأماكن للمرة الأولى بقدر كبير من الاهتمام والرغبة في المعرفة. هنا شعرت بشيء ما لم اشعر به في أي مكان آخر من فلسطين. لم ارغب في معرفته. لم ارغب ببساطة في دخول المنزل رغم أن ولديّ حثاني على الدخول. لقد أشرت إلى نافذة الغرفة التي ولدت فيها، والتي كان من الممكن رؤيتها من خارج المنزل، وقلت لهما إن ذاك كان المكان الذي ولدت فيه. قالا: «بابا، ألا تريد أن تدخل وتلقي نظرة عليه؟» قلت لهما لا، لا أريد. كأنما هناك جزءا من ماضيّ قد انتهى بالفعل وهو يرتبط بسقوط فلسطين ولم اكن قادراً على إعادة استقصائه. لم أستطع زيارته مرة أخرى.

د. ب.: كان أحد العناوين الثانوية في المقالة: «الهبوط إلى غزة». لا أعتقد أن الاستعارة فاتتك هنا. فهو هبوط.

إ.س.: إنها اكثر الأماكن التي زرتها ترويعاً. قبل أن أمضي - لم اقل

هذا في المقالة - قال الشاب الفلسطيني الذي قاد بنا السيارة إلى غزة من القدس لزوجتي وابنتي: «لا يمكنكما الذهاب إلى غزة كما أنتما، أي بملابس غربية. يجب أن ترتديا حجاباً حقاً. عليكما أن تغطيا الرأس والذراعين». كان الوقت منتصف الصيف، وكان يوماً حاراً. قلت: «لم يقل لنا هذا أحد من قبل». قال «حسناً، لم يقولوا لك. غزة مكان عنيف جداً، وأي شخص يتوه عن الطريق سواء كان عربياً أم إسرائيلياً سيرمى بالحجارة. ليس عليكم ارتداء نظارات داكنة في غزة، لأنهم سيعرفون فوراً أنكم أجانب وربما يحسبونك جاسوساً إسرائيلياً وسوف تتجمع عصابة منهم من حولك». إذن هناك تلك الأسطورة الكاملة عن غزة تهيئك لكرهها سلفاً. وبالنتيجة حين تذهب إلى هناك فإنها لمكان حزين إلى حد مرعب بسبب اليأس والبؤس اللذين يعيش بهما الناس. لم أكن مستعداً للمخيمات التي كانت أسوأ بكثير من أي شيء شاهدته في جنوب أفريقيا. أحسست أن النظام المفروض، نظام اللاإنسانية والفقدان البدائي بل الوحشي لأسباب الراحة، جريمة كبيرة ضد الإنسانية، وهو مفروض من قبل الإسرائيليين حتماً. لا أحد غيرهم يحكم المكان هناك. لذلك فإن تمرد وثورة كثير من الناس، وخاصة الشبان الذين رأيناهم، ممكن تفسيرهما تماماً بتلك الظروف. وهذه الأمور لا أحد يتحدث عنها باستثناء قلة قليلة من أمثال «غلوريا إميرسون». لا أحد يذكر غزة.

د. ب.: لقد كتبت: «لاشيء رأيته في جنوب أفريقيا يمكن أن يقارن بغزة من حيث البؤس. ومع ذلك فإن إسرائيل لم تقابل بانتقادات عالمية كما جرى لجنوب أفريقيا. وعلى نحو ما فإن إسرائيل ينظر إليها على أنها لا علاقة لها بممارساتها». إن «على نحو ما» هذه غير دقيقة بعض الشيء. ليس في الأمر سحر.

إ.س.: لا. ليس كذلك. لا أستطيع أن أفهم الأمر، ولهذا استخدمت «على نحو ما». إنه شيء لا أستطيع تفسيره. من يعرف الوضع في غزة

يجد من الصعب جداً عليه أن يربط ما بين الوضع في غزة وممارسات الحكومة الإسرائيلية. ويدهشني انه لم يحدث هذا الربط كما أنني مندهش من عدم حصول حملة غربية كبرى يقوم بها الأكاديميون ضد إغلاق المؤسسات التعليمية في الضفة الغربية وغزة، وأنه لم يقم المزيد من الناس بمحاولة جذب الانتباه إلى هذه الحقيقة. وحتى في المسألة الأخيرة المتعلقة بالترحيلات [ترحيل مجموعة حماس إلى لبنان]، فإن معظم من تم ترحيلهم كانوا من غزة. ولم يربط أي شخص ممن يعملون في وسائل الأعلام في التقارير التي رأيتها، نوع المقاومة التي يمارسها الناس في غزة مع الوضع هناك، وهو الوضع الذي أوجده الإسرائيليون، الذين حاولوا الحطّ من حياة أهل غزة ليصل مستواها إلى مجرد وجود حيواني. لم يطرح أحد هذه المسألة، وأجد ذلك غريبا جدا.

د. ب.: كما قال رئيس الوزراء إسحق رابين فإن العالم منافق حين يتعلق الأمر بالترحيلات. هناك كل ذلك الصراخ والزعيق حول (٤١٥) فلسطيني مرحّل. أين كان العالم حين تم ترحيل (٣٠٠,٠٠٠) فلسطيني من الكويت؟ عليك أن تتفق معه.

إ.س.: أجل إنه على حق تماماً. ولكن الفرق بالطبع هو أن إسرائيل أولاً وقبل كل شيء مسؤولة عن تدمير بلد كامل، وقد جرى ذلك في عام (١٩٤٨)، وطرد معظم سكانه، وثانياً فإن إسرائيل كانت تمارس الاحتلال الاستعماري متجاهلة عشرات من قرارات مجلس الأمن الدولي حول الضفة الغربية وغزة منذ عام (١٩٦٧). وثالثاً، فإن المسألة الأهم لديّ هو أن الكويتيين وردُّ فعلهم على الفلسطينيين أمر مشين. والكويتيون لا يتمتعون بمكانة عالية في الغرب. إنهم موضع للفكاهة. إنهم فاسدون ومتوسطو القيمة.أتحدث عن العائلات الحاكمة التي تدير البلد. وهم يستحقون أي شيء يصيبهم. لقد شنت حرب لصالحهم من قبل الولايات المتحدة وبالطبع بسبب النفط. هذا هو الأمر، ولا يعطيهم أحد أي اعتبار.

إسرائيل هي الابنة الأخلاقية بالمعمودية للغرب. وإسرائيل يُحتفل بها وتُحيّا وتعطى مئات الملايين من الدولارات. لقد منح المواطنون الإسرائيليون (٧٧) مليار دولار منذ عام (١٩٦٧) من الولايات المتحدة لوحدها. وبالتالي فهي عرضة لنقد من هذا النوع. هذا عبارة عن تحدٍّ لقرارات الأمم المتحدة. لذلك اعتقد أن رابين على حق جزئياً. وهو في رأيي مجرم حرب على أي حال، لأنه كان مسؤولاً شخصياً عن طرد (٥٠) ألف فلسطيني من اللد والرملة محولاً إياهم إلى لاجئين في عام (١٩٤٨). لقد تحدث هو حول ذلك في مذكراته. لم يسبق أن سأله أحد ذلك السؤال. «ألا ترى أيها السيد رابين استمرارية بين ما فعلته في عام ١٩٤٨ وأنت في الجيش، في الهاغاناه، وما فعلته الآن»؟ هناك استمرارية. هذا هو الرجل نفسه الذي طرد (٥٠) ألف شخص في عام (١٩٤٨) وقد طرد مؤخراً (٤١٥) شخصاً. وفوق ذلك كله فإن رابين يعتبر رجلاً من اليسار. إنه عضو في «الأممية الدولية». في وزارته كثير من اليساريين، مثلا حزب «ميرتز»، وقد صوتوا إلى جانبه في مسألة الترحيلات. خلال العملية لم يسأل أحد لماذا هناك ذلك الانسجام الاستثنائي بين الليبراليين واليساريين من ناحية والترحيل والطرد من الناحية الأخرى؟

وأعتقد هنا انه من المهم أن نلاحظ أن فكرة التخلص من الفلسطينيين كانت أمراً ثابتاً في الفكر الصهيوني منذ بداية القرن العشرين، سواء كان ذلك لدى اليسار أو اليمين أو الوسط. كل مفكر صهيوني رئيسي تحدث دائماً عن ترحيل الفلسطينيين، طرد الفلسطينيين، التخلص منهم، جعلهم يتلاشون في الهواء كالأرواح. لذلك فهذه استمرارية كانت موجودة منذ البداية. إنه ليس انحرافاً ما من جهة رابين عن الطريق.

د. ب.: لقد قلت إن عدو الفلسطينيين في النهاية يجب ألاّ يتم

نسيانه أو تهميشه، ولكن «هو الصمت: أن تكون واعياً وتلتفت بعيداً». وأضيف أيضاً أن الزمن عدوكم أيضاً.

إ.س.: اعرف. الوقت عدونا. ولكن من ناحية أخرى فإن واحدة من الإنجازات الرئيسية لنضال الفلسطينيين في السنوات العشرين الماضية كانت أن المزيد ثم المزيد من الفلسطينيين مصممون على البقاء على الأرض. طالما نحن هناك فإننا نمثل مشكلة لهم. هذا هو الأمر الأساسي. لاشك أبداً في رأيي أنهم يريدون في النهاية أن يتخلصوا منّا. وفكرة أن هناك نظرية ما تقول إن شامير يريد أن يتمسك إلى الأبد بأرض إسرائيل بينما رابين مختلف: هذه نظرية سخيفة. إنه يتكلم بخط مختلف. هو اكثر قابلية للتصديق حين يتعلق الأمر بـ «حسبارا» أو الإعلام في الغرب الموجه لـ«الغوييم» [الأغيار] ولكنها أساساً الفكرة نفسها. وافضل ما سيحدث للفلسطينيين هو التخلص منهم. وإذا لم يكن ذلك ممكناً، سنوقع اتفاقية معهم تجعل حياتهم غير ممكن احتمالها حتى أنهم سيموتون في النهاية توقاً للخروج. وهذه في رأيي هي الخطة. أي شيء تسمعه حول الوفاق والسلام هو مجرد حديث القلة الهامشية. في التيار الرئيسي هناك أساساً فكرة الأبارتهيد الجوهري، أن على الفلسطينيين الرحيل.

لِمَ أقول هذا؟ ليس لأني غاضب منهم أو لأني فقدت الأمل، ولكن إلى حد كبير لأنه ليس هناك قسم ممكن تقديره من الرأي العام الإسرائيلي سبق له أن عبّر عن أي شيء سوى هذه الآراء عن الفلسطينيين. هناك قلة من الحالمين شأن البروفسور شاحاك والبروفسور ليبوفيتز وأعضاء «ب. تسيليم»، وهي مجموعة مراقبة حقوق الإنسان، الخ. إنهم يؤمنون بالتعايش مع الفلسطينيين على أساس المساواة. ولكن المقدمة المنطقية الصهيونية الأساسية التي لا تدير المفاوضات فحسب بل الوضع الراهن من خلال مصطلحات الوضع

الحالي، هي أن على الفلسطينيين أن يكونوا في وضع أدنى وإن أمكن في الخارج. لم يكن هناك أبدا بديل قابل للتصديق ضمن التيار الأساسي للتفكير الصهيوني. وهذا ينطبق على اليهود الأمريكيين الذين هم صهاينة كما ينطبق على اليهود الإسرائيليين.

د. ب.: إنها العملية المتمثلة في ذلك المصطلح الذي غالبا ما سمعته في غزة «الموت البطيء».

إ.س.: بالضبط.

د. ب.: يتحدث «ستيفان ديدالوس» في «يوليسيز» عن التاريخ على أنه «كابوس أحاول الاستيقاظ منه» حين تكون مستيقظا فماذا ترى؟

إ.س.: لا أعتقد أن التاريخ كابوس خلافا لرأي ستيفان ديدالوس. لا أويد وجهة النظر هذه. أعتقد أن التاريخ مكان لكثير من الإمكانيات. لا أعتقد أنه في التركيبة السياسية الحالية سواء في الشرق الأوسط أو في الولايات المتحدة سيحدث أي تغيير أساسي. ويمكن أن يحدث فقط ببطء شديد ونتيجة للتعليم. التعليم أداة مركزية في كل هذا. ودون مواطنية واعية ذاتيا وشكاكة وذات ذهن ديموقراطي، لا أمل هناك في أي تغيير سياسي نحو الأفضل، في هذا البلد [الولايات المتحدة] أو في الشرق الأوسط. هذا يحدث ولكن ببطء شديد فحسب.

د. ب.: أنت تستنتج أن مقالة «هاربرز» التي ورد فيها: «سأجد من الصعب جدا العيش هناك. أعتقد أن المنفى يبدو حالة أكثر تحررا. ولكنني أستطيع أن أشعر وأرى أحيانا مستقبلا مختلفا وهذا ما لم أستطعه من قبل». وهذا يذكرني ببيت لـــ«ت.س. إليوت» اقتبسته أنت في مكان آخر: «هنا الاتحاد المستحيل للمجالات المنفصلة للوجود اتحاد فعلي. هنا الماضي والمستقبل قد جرى غزوهما وتوفيقهما». هذا هو نوع الرؤية التي لديك.

إ.س. : تماما. وأعتقد أن هذا ممكن خلال البصيرة. ولهذا أظن أن

الثقافة هامة جداً. وهي تقدم بديلاً حالماً، تمييزاً بين هذا العالم والسدّ الذي يراه المرء كثيراً في عالم كل يوم، العالم الذي نعيش فيه، وهذا لا يسمح لنا بأن نرى ما وراء الخلافات المستحيلة في السلطة والحالة المتراكمتين مثلاً ضد الفلسطينيين، وإمكانية الحلم بحلم مختلف ورؤية بديل لهذا كله. لقد تعلمت هذا منذ سنوات كثيرة من ناقد إنكليزي عظيم، هو «رايموند ويليامز»، وهو الذي علّمني اكثر من أي شخص آخر فكرة التفكير بالبديل. ليس الحلم فحسب إلى هذا الحد، وهو بالأحرى من غير هذا العالم، ولكن لكل وضع، بغض النظر عن الحد الذي هو مهيمن عليه فيه، هناك دائماً بديل، وما على المرء أن يمرّن ذاته عليه هو التفكير بالبديل، وليس التفكير بالحالة المقبولة والراهنة أو الاعتقاد بأن الحاضر مجّمد.

الاتفاقية بين إسرائيل و«م.ت.ف.»
تقييم نقدي

٢٧ أيلول (سبتمبر)١٩٩٣

دافيد بارساميان : حيّت مجلة «تايم» الاتفاقية التي وقعت في واشنطن بتاريخ ١٣/٩/١٩٩٣ بين الحكومة الإسرائيلية و«م.ت.ف.»، مثلاً، على أنها «اختراق تاريخي». أما توماس فريدمان في نيويورك تايمز فقد دعاها «المعادل في الشرق الأوسط لسقوط جدار برلين». تمثل الاتفاقية كما قال «انتصار الواقعية على التعصب والشجاعة السياسية على الجبن السياسي». ما هي قراءتك لما حدث في واشنطن؟

إدوارد سعيد: أعتقد أنها اختراق تاريخي ذو أبعاد هائلة، ولكنها بالنسبة إلى الفلسطينيين – أساساً – أداة للاستسلام. وبالفعل فإن توماس فريدمان الذي كان يحيي الاتفاقية، غالباً مايقيّمها على نحو اكثر صدقاً. ففي إحدى مقالاته يسميها «الاستسلام الفلسطيني». وأعتقد أن هذا صحيح جداً. هناك بعض الأمور الإيجابية فيها سأذكرها بعد لحظات، ولكني أعتقد انه من المهم اقتباس مصادر أخرى عدا جوقة الموافقة الغبية. مثلاً في برنامج تلفزيوني قبل ثلاثة أسابيع، تعرض وزير الخارجية السابق جيمس بيكر للنخس باستمرار من قبل «كوكي روبرتس» الذي ظل يقول له: «ولماذا على إسرائيل أن تثق بـ«م.ت.ف.»»؟ فعرفات إرهابي قبل كل شيء. هؤلاء لا يحفظون عهودهم أبداً. وهكذا

دواليك. وقد أجابه بيكر ساخطاً تقريباً: «كوكي، لا سبب يدعو إلى الثقة أو عدم الثقة بعرفات. والحقيقة هي انهم لم يتخلوا عن أي شيء.» وفي مقابلة مع الـــ «بي بي سي» أجريت معي في الوقت نفسه «ظهرا لظهر» مع «آموس عوز»، أحد «الحمائم» الإسرائيليين، فقد سأله مايكل إغناتييف من الـــ «بي بي سي» ما رأيك في الاتفاقية؟ كان هذا نوعاً من البيان المختصر. قال عوز: «الثالث عشر من أيلول ١٩٩٣» هو يوم ثاني أكبر نصر للصهيونية، وكان الأول تأسيس دولة إسرائيل في عام (١٩٤٨). واعتقد لدرجة معينة أن هناك شيئاً ما صحيحاً في كل هذه التعليقات.

أما بالنسبة إلى التعليقات الإيجابية على الاتفاقية، فبالطبع هناك الاعتراف من قبل إسرائيل بـــ«م.ت.ف»». ولكن «م. ت. ف» يعترف بها على أنها «الممثل» وليس الممثل الوحيد الشرعي للشعب الفلسطيني. ولكنك لو نظرت إليها بتلك الطريقة فحسب، عندها ستضيّع بالفعل الغلاف الذي وصل هذا الاعتراف ضمنه، لأنه من الناحية الأخرى، كان الاعتراف الفلسطيني بإسرائيل وحقها في الوجود – صيغة غير موجودة في العلاقات الدولية بالمناسبة – مرافق بسلسلة كاملة من التخلّيات من قبل «م. ت. ف.»، و تشمل هذه التخلي عن العنف والإرهاب، مما يوحي بالطبع بأن «م.ت.ف.» كانت منظمة إرهابية وقد أصلحت نفسها الآن بينما هي بالنسبة إلى شعبها وإلى معظم العالم، باستثناء الولايات المتحدة وإسرائيل، حركة تحرير وطنية وسلطة وطنية. إذن فإن توصيف كل أعمال العنف، التي قد يفسرها البعض على أنها مقاومة ضد عنف إسرائيلي أعظم بكثير، قد تم التخلي عنه والإقرار بأنه إرهاب وعنف. في رأيي هذا توصيف مخجل لتاريخ حركة المقاومة الفلسطينية، وهي التي كانت تحارب منذ مائة عام على الأقل، دون نجاح، الغزو الصهيوني لفلسطين ولم تكن قادرة للأسف على استعادة أي أراض.

وعلاوة على ذلك، تكمن في الاعتراف فكرة أن «م. ت. ف.» وإسرائيل ستقومان الآن بالتفاوض على أساس القرارين (٢٤٢) و(٣٣٨)، وهذان القراران لا يذكران الفلسطينيين إطلاقاً. وفي مجرى العملية هذا، وكما برهن التاريخ اللاحق، فإن «م. ت. ف.» تتخلى عن كل القرارات الأخرى التي أصدرتها الأمم المتحدة منذ عام (١٩٤٨)، بما فيها وقبل كل شيء القرار رقم (١٩٤) الذي يقول إن اللاجئين الفلسطينيين الذين حولتهم إسرائيل إلى لاجئين في عام (١٩٤٨) يحق لهم التعويض أو العودة. وحتى الولايات المتحدة صوتت على هذا القرار. وكل سنة كانت الجمعية العمومية تعاود تبني هذا القرار. وما نعلمه الآن أن كلاً من ممثلي إسرائيل و«م.ت.ف.» في الأمم المتحدة يجتمعون الآن لتعديل وإلغاء وإعادة التفاوض على كل قرارات الأمم المتحدة هذه، والتي تشمل تلك التي تدين إسرائيل فيما يخص المستوطنات وضم القدس ومرتفعات الجولان وسوء معاملة السكان المدنيين تحت الاحتلال، وهكذا دواليك، والتي تقوم «م. ت. ف.» الآن شيئاً فشيئاً بالتخلي عنها.

أضف إلى ذلك، وهذا شيء يقلقني بعمق، فإن «م. ت. ف.» قد قبلت الفكرة بأنها لا تفاوض على الحقوق الوطنية للفلسطينيين وتقرير مصيرهم. إن ما تفاوض عليه هو الحكم الذاتي المؤقت المحدود لسكان الضفة الغربية وغزة. لذا فإنه في كلٍّ من تبادُل الرسائل وفي تصريح إعلان المبادئ اللذين وقعتهما إسرائيل و«م.ت. ف.» في ذلك اليوم، لا ذكر هناك للفلسطينيين الذين لا يقيمون في الضفة الغربية وغزة. وهؤلاء يعدون أكثر من خمسين بالمائة من الشعب الفلسطيني، وهم الآن أشخاص دون دولة أو وطن يعيشون في لبنان وسورية ويعيش منهم (١,٤) مليون في الأردن وهكذا دواليك. كل هؤلاء تم التخلي عنهم.

أما الاحتفال الفعلي نفسه، لو راقبه المرء، وقد فعلت، فقد كنت مدعواً ولكنني لم أحضر لأنها لم تكن مناسبة للاحتفال بل مناسبة

للحداد، فقد كان احتفالا مبهرجا تماما. أولا وقبل كل شيء كان هناك كلينتون، كإمبراطور روماني يجلب ملكين من أتباعه إلى بلاطه الإمبراطوري ويطلب منهما أن يتصافحا أمامه. ثم كان هناك ذلك الاستعراض الأشبه بعرض الأزياء للشخصيات من النجوم التي تم إحضارها، ثم كانت هناك الخطابات، وهي الأكثر مدعاة للأسى، والتي ألقى فيها رئيس الوزراء الإسرائيلي إسحق رابين خطاب الفلسطينيين إذ كان مليئا بالألم والقلق «الهاملتي» والشك والخسارة والتضحية وهكذا دواليك. في النهاية شعرت بالأسى على إسرائيل. أما خطاب عرفات فكان قد كتبه رجال أعمال في الواقع وكان خطاب رجل أعمال، مع كل حماسة اتفاقية الإيجار. كان خطابا مريعا تماما في الواقع. وبما انه لم يذكر حتى أي شيء حول تضحيات الشعب الفلسطيني، فإنه لم يذكر حتى الشعب الفلسطيني بأي طريقة جدية. لذلك ظننت أن المناسبة كانت مناسبة حزينة. وقد بدا لي بالتالي أن خطابه والمناسبة والاحتفال الخ قد بدت أنها تتفق مع محتويات الاتفاقية، والتي تجعل الفلسطينيين أيضا تابعين خاضعين للإسرائيليين الذين سيتابعون في الواقع سيطرتهم على الضفة الغربية وغزة خلال المستقبل المنظور.

د. ب.: في آخر كتبك أعني، «الثقافة والإمبريالية» تتكسر الموضوعات الرئيسية للعلاقات الفوقية / الخاضعة والموضوعات الكولونيالية والعنصرية والإمبريالية كلها عبر موشور الأدب. أحس بكثير من القضايا يتردد صداها في «الحديقة الجنوبية» [للبيت الأبيض] في صباح ذلك الاثنين الساطع أيضا.

إ.س.: المفتاح لفهم ذلك، من وجهة نظري، وهو شيء جعلني بالفعل أستقيل من المجلس الوطني الفلسطيني آخر صيف / بداية خريف عام ١٩٩١، كان الإحساس أن «م. ت. ف.»، بعد أن كانت ذات مرة منظمة محاربة، أو على الأقل منظمة تمثل روح النضال الفلسطيني، ليس لقتل

اليهود ولكن لأجل الحقوق والحرية والمساواة، قد أخضعت نفسها بالفعل، بدخول عملية مدريد، إلى الولايات المتحدة وإسرائيل. كان هذا هو ما يقلقني إلى ذلك الحد فيما يتعلق بذلك الاحتفال.

لقد كان من نواح كثيرة بالنسبة لعرفات أعظم لحظاته. لقد كان يقول للناس وظهر ذلك في الصحافة العربية: «هل تدركون ما يعنيه أن تدعى إلى البيت الأبيض؟» الخ. لذلك هناك حس بنوع من «العقلية الزنجية»، زنجي الرجل الأبيض، الذي وصلنا إليه أخيرا وهم قد ربتوا على رؤوسنا ونحن قبلنا واصبح يمكننا الجلوس على كراسيهم الجميلة والتحدث إليهم. ولكن الأمر في الوقت نفسه بالنسبة إلى كثير من الفلسطينيين، لا أعني أولئك الذين كانوا في شوارع أريحا وغزة، والذين قد يكون [عرفات] قد دفع لهم ليتظاهروا، لست متأكدا، يبدو كتصرف مترع بالإهانة المسببة للدهشة والخضوع الدائم، ولكن الولايات المتحدة تمسك بمفتاح مستقبلنا كله، بينما هناك فقدان ذاكرة كامل حين يتعلق الأمر بما فعلته الولايات المتحدة بشعبنا منذ عام (١٩٤٨). وآخر ذلك ما حدث في العام الماضي فحسب.

لا تنس أنه خلال فترة المفاوضات السرية - التي لم تبدأ بالفعل في أوسلو بل بدأت في خريف(١٩٩٢) بين بعض كبار مسؤولي «م.ت.ف.» وقلة من المستشارين الفلسطينيين المأجورين وقلة من الخبراء الأمنيين الإسرائيليين، والذين تفاوضوا في بوسطن في الأكاديمية الأمريكية: كانوا يتفاوضون حول إجراءات الأمن المستقبلية للضفة الغربية وغزة، وخاصة أمن المواطنين الإسرائيليين، ولم يذكر أي شخص أي شيء أبدا حول أمن الفلسطينيين.

إذن هكذا بدأت. تلك الفترة، من تشرين الأول (أكتوبر) إلى أيلول (سبتمبر) من هذا العام، كانت أسوأ فترة اضطهاد في الضفة الغربية. لقد قتل عدد أكبر من الأشخاص في الجزء الأول من السنة: حوالي

عشرين أو ثلاثين شخصا في غزة، والكثير منهم أطفال تحت سن الخامسة عشرة. وكانت تلك هي فترة الترحيلات. في كانون الأول طردت إسرائيل (٤١٥) فلسطينيا، مدعية أنهم كلهم من الإرهابيين، وقد رمتهم خارجا على الحدود اللبنانية. وكان هذا هو وقت إغلاق المناطق، وليس الإغلاق فحسب بل وأيضا حين كنت هناك، كنت أستطيع أن أرى انهم وضعوا الحواجز على كل الطرقات. تتحكم إسرائيل بكل الطرقات، لذلك فإن الانتقال ضمن المناطق المحتلة اصبح شديد الصعوبة. وكنت خلال تلك الفترة التي كانوا يفاوضون فيها على اتفاقية سرية لا تذكر أبدا أيا من هذه الأمور وبالتالي الطرد، مثلا، لم يذكر أبدا، وفوق ذلك كله فإن السجناء السياسيين وعددهم (١٤,٠٠٠) أو (١٥,٠٠٠) لم يذكروا أبدا. لذلك فهذا عمل بطولي مدهش من محو الذات الوطنية قام به عرفات والطريقة المروعة التي قال بها في نهاية خطابه: «شكرا. شكرا. شكرا» عم يشكر الولايات المتحدة ؟ عم يشكر الإسرائيليين؟ قبل شهر ونصف كانت إسرائيل قد غزت لبنان وأعلنت صراحة أنها تحاول أن توجد، وقد أوجدت بالفعل ما بين ٤٠٠-٥٠٠ ألف لاجئ في جنوب لبنان. ولم يذكر أي من هذا، لذلك فهذه قضية تقلقنا.

د. ب.: كان لديك حس بوجود نذير للشر منذ بعض الوقت، حتى قبل استقالتك من المجلس الوطني الفلسطيني. لقد اقتبس كلامك من مقابلة في أواخر الثمانينات على أنك قلت إن: ((«م. ت. ف»، كحركة مهيمن عليها من قبل مصالح طبقية ليست تقدمية إطلاقا. هناك حشد هائل من البرجوازية الفلسطينية الكبرى في «م. ت. ف.»))، وكما لمحت: ((لها اعتماد إيديولوجي على الولايات المتحدة)).

إ.س.: لقد كنت أقول هذه الأمور فعلا قبل ذلك بعشر سنوات على الأقل. لقد أمضيت صيف عام (١٩٧٩) في بيروت وهناك ألقيت سلسلة من المحاضرات وحلقات البحث حول العلاقات بين العالم العربي

والولايات المتحدة. في إحدى تلك المحاضرات العامة التي ألقيتها سئلت عن مسألة المفاوضات فقلت إنه لم يكن لدي شك بأن «م. ت. ف» ستتفاوض مع إسرائيل. وليس هذا ما يقلقني. إن ما يقلقني هو أي نوع من المفاوضات ستكون تلك، وما غايتها، وأي نوع من الاستقلال وفوق ذلك كله أي نوع من الدولة الفلسطينية نتحدث عنه. هناك كمنت مخاوفي، لو أمكنني التحدث عن نفسي على هذا النحو، كنت ذا بصيرة، لأني كنت قلقا على نحو مسبق من أنها لن تكون في الواقع مصالح الكتلة الكبيرة من الفلسطينيين الذين هم أساسا مفقرين أو دون وطن وبالتالي دون ارض، ولكنها ستكون في خدمة مصالح ما كان على نحو مطرد الفئات العليا في «م.ت.ف.»، أي البورجوازية المعتمدة إيديولوجيا على الولايات المتحدة والرأسمالية، غير ذات الاهتمام الجدي في إصلاح بنية المجتمع الفلسطيني ولا حتى العالم العربي الذي نحن جزء منه. ولهذا كان لدينا الكثير من الأنصار في العالم العربي. لم يكن الأمر أننا كنا نحاول اخذ قطعة من الأرض ولكن أننا كنا نمثل كفاحا لا دينيا في سبيل الحرية والديموقراطية وفوق كل ذلك كل التحويل الاجتماعي والأيديولوجي. وهذا لم يحدث أبدا.

د. ب.: إلى أي حد تظن أن عرفات والأشخاص الذين من حوله قد تلبسوا مواقف عنصرية وكولونيالية؟

إ.س.: لا اعرف حقا شيئا عن هذا. من الصعب علي التغلغل في سيكولوجيا أشخاص لا أراهم كثيرا. ولكني شعرت بالتأكيد انه حدث تغير نوعي في القيادة الفلسطينية وقيادة «م.ت.ف.» بعد عام (١٩٨٢)، بعد كارثة الغزو الإسرائيلي للبنان وحقيقة أن القيادة الفلسطينية أرغمت على مغادرة لبنان بناء على أمر وتعاون الولايات المتحدة وعلى أن تقيم في تونس. خلال عقد الثمانينات فقدت القيادة الفلسطينية في تونس العلاقة اللصيقة مع شعبها، وأعتقد مع مهمتها. لقد زرت ذلك المكان

غالبا ودائما ما كنت أشعر بخيبة أمل لا تصدق بعد كل مرة أغادر فيها.

ولازلت أعتقد أن «م.ت.ف.»: هي المؤسسة الوحيدة التي لدينا. وهي غير مملوكة لعرفات والقلة التي بقيت من حوله، وهم أساسا متملقون ومرتزقة وأشخاص من هذا النوع، وإنما مؤسسة وطنية. ولكن خلال عقد الثمانينات لاحظت في الواقع أن الحس الشعبي بما كانت عليه «م.ت.ف.» كان دائما مضحكا على الدوام. اعتاد الناس أن يضحكوا على عرفات والأوضاع التي يتخذها أمام الكاميرا. واعتقد أن الانتفاضة قد فاجأتهم، رغم أنهم عملوا معها. والإنجاز الوحيد الكبير لذلك العقد كان اجتماع المجلس الوطني الفلسطيني في عام (١٩٨٨) في الجزائر. ولكن كان ذلك بمعنى من المعاني قد فرض على «م.ت.ف.» بسبب الأحداث على الأرض والنجاح المدهش لهذه الثورة الجماهيرية المعادية للاستعمار، ألا وهي «الانتفاضة».

ولكني أعتقد أن الانحدار النهائي جرى مع حرب الخليج، كانوا معزولين، مع حس هائل بالفانتازيا. وأذكر أنه حتى في كانون الأول (ديسمبر) من عام (١٩٩٠) فإن كبار قادة «م.ت.ف.» كانوا في نيويورك وكانوا يقولون لي في الوقت نفسه: أ) إنه لن تكون هناك حرب، بينما كان واضحا لأي شخص يعيش في هذا البلد [الولايات المتحدة] أنه ستكون هناك حرب. (ب) إنه لو اندلعت الحرب فإن العراق سيكسبها بكل تأكيد. هذا الشخص، الرقم اثنان أو ثلاثة في المنظمة، قال لي إن العراق لديها أسلحة لم يسبق لك أن سمعت بها. وسوف يدمرون الولايات المتحدة. إذن كان هذا جوهريا هو التخبط التكتيكي الاستراتيجي الإيديولوجي المتمثل في دعم حكومة والمتمثل في تلقي الدعم من حكومة مثل حكومة صدام حسين. لقد شعرت اعتبارا من ذلك الوقت أن لا علاج للوضع، وعلى نحو أساسي لأنه لم تكن هناك مسؤولية ولا آلية لتحمل المسؤولية. بعد (١٩٩٠)، وحين اصبح صديقي شفيق الحوت عضوا في

اللجنة التنفيذية في عام (١٩٩١)، وذلك يعود جزئيا إلى جهود محمود درويش وأنا شخصيا، فقد لوحظ أن عرفات كان لديه لوحده التحكم بالأموال. ليس من يوقع الشيكات سواه. كان الشخص الوحيد الذي يعرف أين يذهب المال. حين تحطمت طائرته في ليبيا في ربيع (١٩٩٢)، فقد سبب هذا في حدوث ذعر لأن الناس قالت: من سيدفع رواتبنا الآن؟ فقد كان الشخص الوحيد الذي يعرف مكان الأموال. لذلك أعتقد أن هذا كله خلق شللا إيديولوجيا كان جاهزا لحل مفاجئ ودراماتيكي وحتى مسرحي وسريع وكان في النهاية حلا لمجرد ضمان بقاء القيادة التقليدية لـ «م.ت.ف» على قيد الحياة.

د. ب.: من خلال لغة القوالب الثقافية الجاهزة وهي حية وترزق في الشرق الأوسط، فإن كرة مفاوضات القناة الخلفية كلها كما أعتقد تتماشى مع تلك.

إ.س.: أجل. القوالب الجاهزة الآن على الجانب الفلسطيني وكنت شديد الانخراط به، وهذا بالفعل «نضالي» الأساسي (ولن اسميه نضالا) لأن هذا من شأنه أن يشرفه كثيرا، ولكن جهودي فيما يتعلق بقيادة «م.ت.ف.» كانت محاولة أن أشرح لهم كيف تعمل الولايات المتحدة، وأن أسوأ شيء نستطيع فعله هو ما فعلوه خلال فترة ريغان و بوش. أي محاولة الاعتماد على قوة اليوم والتحالف معها حصرا، ولهذا فإن مسألة مدريد قد مرت بسلام. في هذه الحالة كان الرئيس وتلك الإدارة بعينها، وذلك في أمل مضلل تماما بأن شخصا مهما، وهو عادة رجل، سيكون قادرا على تقديم حل و ذلك لو اقتربت منه بما فيه الكفاية، لو وعدته بأشياء، لو كنت قادرا على إظهار انك ستعمل لاحقا لمصلحته. وقد حاولت أن اشرح لهم أن الولايات المتحدة ليست كدولة من الشرق الأوسط. لا يتجلى الأمر في وصولك إلى الرئيس أو أحد مساعديه أو وزيرا هو إلى جانبك ثم تستطيع فتح الأبواب، وان الولايات المتحدة

مجتمع معقد، وأن هناك المؤسسة، وهي التي كانت ولا تزال معارضة لطموحات تقرير المصير للفلسطينيين ورسالتهم الاجتماعية والسياسية. هناك وسائل الأعلام والجامعات والكنائس والأقليات والمجموعات العرقية والاتحادات العمالية والحركة العمالية. كل هذه الأمور كنت أقول هذا منذ نهاية السبعينات - يجب أن تؤخذ في الحسبان ولكنهم لم يستطيعوا لأن قالبهم الجاهز كان يقول إنك لو استطعت إيجاد شخص ابيض في منصب بارز، سيكون قادرا على توفير الأمر كله. وهذا أصاب بالعدوى حتى المفاوضات والوفد الذي كان عليه أن يعرف على نحو أفضل.

سأعطيك مثلا. في ربيع (١٩٩٢) في نيسان، في منتصف الانتخابات الرئاسية التمهيدية، وجد أحد أصدقائي العرب في واشنطن أنه في ذلك الحين كان المرشح كلينتون في واشنطن وينزل قريبا من أو بالفعل في الفندق نفسه الذي ينزل فيه الوفد الفلسطيني، وكان يتفاوض مع الإسرائيليين. وهذا الصديق ذهب إلى جماعة كلينتون وقال: أود أن يقابل الحاكم كلينتون أعضاء الوفد الفلسطيني. وقال كلينتون أجل. يسرني ذلك. كان يتطلع إلى الدعم. لم يكن قد قدم التزامه بعد بتلك القوة كما حدث لاحقا لإسرائيل. لذا ذهب هذا الصديق إلى الوفد الفلسطيني فرفضوا. قال لهم: ولم لا؟ قالوا: لا نريد فعل ذلك لأنه لو اكتشف الجمهوريون وإدارة بوش أننا اتصلنا بالمنافس الديموقراطي، سينزعجون ولن نصل إلى أي مكان. لذلك لم يقابلوا كلينتون. وحتى بعد الانتخابات في تشرين الثاني (نوفمبر)، كانت هناك جولة في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٩٢ في واشنطن، وقد سبق لكلينتون أن نجح في الانتخابات، ولكنهم كانوا لا يزالون غير مطمئنين إلى نتائج الاجتماع مع ديموقراطي، لأنهم كانوا يخشون أن «بيكر» كان لا يزال قادرا على منحهم شيئا وذلك في آخر شهر من وجود الإدارة في الحكم. بينما كانت إدارة بوش بالفعل،

والتي دعمها الفلسطينيون علنا، قد سبق لها وسلمت كفالات قرض العشرة مليارات دولار إلى إسرائيل، ووافقت على أو على الأقل لم تعترض على ترحيل الفلسطينيين في كانون الأول (١٩٩٢). وكل هذا عبارة عن قالب أيديولوجي جاهز، ليس من قبل الأمريكان تجاه الفلسطينيين، فهؤلاء سيئون بما فيه الكفاية. هذا القالب الجاهز هو لدى الفلسطينيين عن الأمريكان.

كان ذلك غباء وجهلا استثنائيين. لاعذر للجهل. لا نتحدث هنا عن فلسطينيين يعيشون في الولايات المتحدة. وإذا ما تركنا جانبا كبار القادة، فإن عرفات لا يعرف شيئا عن الغرب ولم يسبق له أن عاش فيه. محمود عباس، الرجل الذي وقع الاتفاقية، لا يعرف الإنكليزية حتى. عرفات لا يستطيع قراءة وكتابة الإنكليزية بأي مهارة فنية إطلاقا. ولكني أتحدث عن المستشارين. الذين تلقى الكثير منهم تعليمهم في أمريكا وبقوا معوقين ايديولوجيا كعرفات ومستشاريه. هذه هي المأساة الحقيقية. إنهم المثقفون، الأشخاص الذين تلقوا تعليمهم في هذا البلد [الولايات المتحدة]، ولم يستخدموا بالفعل معرفتهم لتحويل الوعي حتى نستطيع على الأقل أن نحمل الأمل بالتعامل مع الولايات المتحدة من موقف التساوي مع بعض الفهم لما هي عليه الولايات المتحدة كنظام، وليس كحفنة أفراد قد نحبهم أو لا نحبهم.

د. ب.: يبدو لي وجود قبلية ما- وأكره استخدام هذا المصطلح المشحون - تعمل عملها هنا، فالزعيم في الأعلى، قائد العشيرة، الرئيس، الذي لا يساءل.

إ.س.: لست متأكدا من أني سأستخدم هذا المصطلح إذ أن القبلية فكرة عنصرية غامضة. ليست القبلية. أعتقد أنه اختيار اجتماعي وسياسي وايديولوجي حتى انك في أوقات المحنة تكون فكرتك عن حركتك الوطنية، والتي ويالالأسف، فهذا لغير صالحها، لازالت مستمرة

في الالتزام بأسلوب سياسة غير تقدمية، أسلوب السياسة التي تخضع الفرد لمصلحة الدولة والتي يمكن أن توجد في الدول المتقدمة أيضا. أنت تراها في مناطق كثيرة من أوربا، عودة مبدأ إخضاع الفرد لمصلحة الدولة. إن ما تسميه القبلية اسميه أنا رهاب الأجانب. أي فكرة أنه مهما فعل الفلسطينيون فهم على حق، فقط لأنهم فلسطينيون. يجب دعم القيادة. في حركتنا هناك الكثير من الحديث حول الديموقراطية. هناك ديموقراطية بالمقارنة مع العالم العربي. يستطيع الناس أن يتكلموا. لطالما تكلمت بصوت مرتفع تماما وبلهجة ناقدة. ولكن فكرة المعارضة المؤسساتية غير موجودة. الفكرة هي أنه على نحو ما عليك أن تؤيد القائد فالقائد يعرف افضل من الجميع. والمأساة هي أن بعضا من هؤلاء المثقفين في الحركة، والذين كانوا يبكون لي قبل أسبوع من كشف هذه الاتفاقية السرية، وذلك في ٢٧ آب (أغسطس) متشكين من مدى تفاقم الأوضاع داخل «م. ت. ف.» ومدى ما أصبح عرفات غير ممكن الوصول إليه، وكم اصبح اوتوقراطيا ومحاطا بالتابعين الخنوعين، وكيف تقلصت الدائرة. وبعد (٢٤) ساعة من توقيع الاتفاقية، انقلب هؤلاء واصبحوا مؤيدين لعرفات على أنه العبقرية العظيمة ويا له من شيء ذاك الذي جرى، وكأن السياسة هي سياسة الصفقات السرية والقادة الكبار والأحداث التحويلية المفاجئة كالمعجزات،إنه نوع من النظرة اللاهوتية إلى السياسة. هذه هي المشكلة.

د. ب.: ما هي تفاصيل الاتفاقية وتفرعاتها؟

إ.س.: النظرة العامة الآن هي أنها اتفاقية منجزة. لقد احتفى بها الأمريكان علنا. الكثير من الليبراليين اليهود، أصدقاء حركة «السلام الآن» ونقاد الليكود في أمريكا، يحتفلون بها أيضا. أعتقد أن هناك معنى ما حتى للفلسطينيين الذين أفزعتهم الاتفاقية الفعلية، يتفقون فيه، وإلى درجة معينة أنا أتفق معهم أيضا، أي هيا نأمل أن تؤدي إلى شيء افضل.

لأني لا أعتقد أن أي شخص قد انطلت عليه الحكاية. فمن الواضح أنها اتفاقية بين فريقين غير متساويين إلى حد كبير. ولكن كان واحدا من أكثر البيانات استثنائية قد صدر عن نبيل شعث، الناطق باسم عرفات، الذي ما كانت له أي علاقة بالصفقة. لقد كان هنا حين كشفت. قال في التلفزيون إن هذا تصريح مبادئ يؤسس «تعادلا» مطلقا بين الإسرائيليين والفلسطينيين. مثل هذا الهراء لا أعتقد أنه ينطلي على أحد. لا شك أنه لا الولايات المتحدة ولا أي فلسطيني ممن أعرفهم يصدق ذلك. ولكن هناك شعورا ما بين الفلسطينيين في الضفة الغربية وغزة، و الذي تحدثت إليهم باستمرار منذ عودتي من هناك، يوميا تقريبا، بأنه على الأقل هناك فرصة بأن الإسرائيليين سينسحبون من بعض القطاعات. إن إرهاق ستة وعشرين عاما من الاحتلال العسكري الوحشي، والأمل بأنه قد يكون هناك حرية أكثر قليلا، وانه قد يكون هناك مزيدا من المال سيدخل، وان الأمور قد تتحسن نحو الاستقلال، هذا الأمل يشترك به الجميع، بما فيهم أنا شخصيا ولكني لا اشعر بأننا نستطيع التحرك نحو الأمام واقعيا دون أن نفهم حقا ما تقوله الاتفاقية وما لا تقوله. لذلك أعتقد أن أول أمر علينا أن نفهمه هو أنها بالفعل انعكاس مباشر لضعفنا على أننا الفريق الثاني بالنسبة لإسرائيل. لذلك يجب الإقرار بهذا. وفي الاتفاقية شروط المنتصر. إذن علينا أن نفهمها كأداة لاستسلام في كثير من النواحي الرئيسية. إنها تقدم للفلسطينيين درجة نسبية ما من التحسين، ولكن هناك أيضا قيود هائلة كثير منها قد منح الآن تعبيرا قانونيا وقد وقعنا عليها وقبلناها، أو على الأقل قبلتها القيادة. لا تستطيع التحرك نحو الأمام حتى تفهم ما فيها. لا تستطيع أن تقول لنر إن كنا نستطيع جعلها تعمل حتى نعرف ما فيها من أشياء يمكن عملها أولا.

أول شيء كبير علينا فهمه هو آثار قبول حل مؤقت وهذا ما يصرح عنه، إنه إعلان مبادئ لتسوية مرحلية مؤقتة. لدينا مطالبة بالأراضي

المحتلة، وهذه الأراضي نعتبرها دائما وكذلك العالم عموما، بما فيه الولايات المتحدة، على أنها أراض محتلة، ولذلك يجب أن تخلى وتتحرر من الاحتلال. وهذه الاتفاقية تضعها على المستوى نفسه على أنها أراض متنازع عليها. لقد قالت إسرائيل بالفعل، وقبلنا نحن، دعونا لا نتحدث عن السيادة وهي القضية الرئيسية هنا، أو عن السيطرة. فلنتحدث عن الاستقلال والحكم الذاتي المحدود في الفترة الانتقالية، تاركين قضايا المستوطنات والسيادة والأرض والماء والقدس وهكذا دواليك، إلى ما يسمى مفاوضات الوضع النهائي، حيث سيتقدم الفلسطينيون بمطالبهم والإسرائيليون بمطالبهم كطرفين متساويين. المطالب متساوية ولكن ليس الفريقين. في هذه الأثناء تتحكم إسرائيل بالأرض.

أعتقد انه من المهم جدا أن نفهم أننا ضحينا بما كنا قد كسبناه خلال كفاحنا على الساحة الدولية لسنوات وفي العالم العربي، أي فكرة أن هذه أراض محتلة وليست مناطق مدارة. وإسرائيل لا تعتبر نفسها حتى هذا اليوم، وبالتأكيد ليس في الاتفاقية، على أنها محتل عسكري. لاشيء في الاتفاقية يقول إن إسرائيل ستنسحب بشكل نهائي. يقول إنه سيكون هناك انسحاب من بعض المناطق، وإعادة انتشار لقواتها في مناطق أخرى. أما المستوطنات وكل الأمور الأخرى فستبقى. إذن علينا أن نفهم أن إسرائيل ستتحكم، كما قال رابين في مؤتمر صحفي في يوم الاحتفال، بالوصول إلى نهر الأردن والعبور فوقه وبالبحر وبشاطئ غزة والحدود الدولية بين غزة ومصر والأردن وأريحا، كما تتحكم بالأرض بين غزة وأريحا وهي تبلغ حوالي (٩٠) كم، أي (٦٠) ميلا تقريبيا. وسوف تتحكم بالأمن وبالشؤون الخارجية.

لقد ألمح رابين في مؤتمره الصحفي إلى أن «م. ت. ف.» ستتوقف عن إنفاق الأموال على سفاراتها، هناك حوالي مائة منها الآن، وتنفق ذلك المال على غزة. وبالفعل فإنه في الأشهر الستة أو الثمانية الأخيرة فإن

كثيرا من سفارات «م. ت. ف.»، بما فيها تلك التي في لندن وباريس وهولندا ونيويورك وفي أمكنة أخرى، لم تكن تستلم الأموال من «م. ت. ف.». وكان الادعاء هو أن «م.ت.ف.» قد أفلست. والرواتب لم تكن تدفع إلخ. وأنا أرى هذا كعلامة شؤم على أن كثيرا من السفارات الدولية لـ«م. ت. ف.» بما فيه ممثليتها في المنظمات الدولية كالأمم المتحدة ستغلق.

إن «م. ت. ف.» في الواقع، وهذه هي المسألة الأساسية الثانية، قد أضحت الآن ليس مجرد طرف موقع على هذا الإعلان للمبادئ ولكن في الحقيقة حكومة بلدية. إن الخطاب الإسرائيلي حريص ودقيق جدا. لم يقولوا أبدا إن «م. ت. ف.» هي أكثر من مجرد حزب سياسي. إنها ليست حزبا وطنيا. إنها ليست الممثل الوطني لشعب. إنها ليست التعبير عن تقرير المصير الفلسطيني. إنها حزب محلي، مثل حزب الليكود، مثل حزب العمل، وهو يتنافس مع هذه الأحزاب الأخرى من أجل كمية معينة من التحكم. لذلك يوجد تضمين هناك.

ثالثا، في قضية التنمية، رغم أن الفلسطينيين سيكون لديهم تحكم نسبي بأمور كالسياحة والصحة العامة وفرض الضريبة مباشرة إلخ، إلا إنه فيما يتعلق بالتنمية، فإن المقدمة الأساسية لهذه الاتفاقية كانت أنه سيتدفق لأول مرة الكثير من الأموال، وستشكل إسرائيل والفلسطينيون ما يسمى مجلس التنمية. ولكن إسرائيل لديها اقتصاد أقوى بكثير ومتغلغل في الضفة الغربية وغزة، إلى حد أن ٨٥٪ من الاقتصاد في الضفة الغربية وغزة يعتمد على إسرائيل، والصناعة الإسرائيلية إلخ، أو تتحكم به إسرائيل. كما سيعطي إسرائيل التحكم بأموال التنمية التي ستتدفق. إذن المشاريع الإسرائيلية والمصالح الاقتصادية في الضفة الغربية وغزة ستتم خدمتها مع المصالح الفلسطينية. لذلك حين يتحدث الناس الآن عن المشاريع الضخمة للبنك

الدولي، والسوق الأوربية المشتركة والدول العربية، هناك ميل إلى نسيان أن إسرائيل متضمنة في هذا أيضا.

أعتقد أن هذه الناحية من نواحي التنمية ربما تكون الأشد خطرا. من الواضح تماما أنه بهذه الاتفاقية ستعيد إسرائيل مجددا ورسميا الإمساك بالأسواق في الضفة الغربية وغزة، وهي بالنسبة إليها ببساطة مكان للصادرات، واليد العاملة الرخيصة التي ستستمر بالعمل تحت هذه الشروط نفسها. و ربما مع البورجوازية الفلسطينية، فإن الطبقة المقاولة ستطور بعض الأمور التي لا علاقة لها بالرفاه الاجتماعي للشعب، مثل المنتجعات والفنادق، وهكذا دواليك. هذه هي أول المشاريع التي جرى التحدث بشأنها. البنية التحتية ستكون على نحو ما متحكما بها من قبل الإسرائيليين مع الفلسطينيين ولكن إلى حد أقل. وهذا سيزود إسرائيل بمنصة قفز إلى بقية العالم العربي. ستصبح فلسطين جسرا للاقتصاد الإسرائيلي الديناميكي الأكثر تنظيما والأكثر قوة بسبب علاقته مع الولايات المتحدة والغرب، كمدخل إلى العالم العربي، وهذا ما أرادته دوما.

هذه هي المعوقات الاستثنائية للاتفاقية. هناك نقطة رابعة: على المرء أن يتذكر أنه طوال هذه الفترة سيبقى الجيش الإسرائيلي وستبقى المستوطنات. ما يعنيه هذا مثلا في غزة أنه تقريبا ٤٠٪ من غزة قد احتلته المستوطنات والجيش. لذلك فإن الانسحاب لن يعطي الفلسطينيين التحكم بغزة، وهذه هي الجملة التي استخدمت، ولكنه سيعطي حكما ذاتيا نسبيا عن ذلك الجزء من غزة الذي سيتحكمون به، وأسوأ من ذلك بكثير انهم سيقومون بالعمل بدلا عن إسرائيل في مجال فرض القانون والنظام، حيث لم يتمكن الإسرائيليون من فعل ذلك. وكما قال رابين في مؤتمره الصحفي، فإن الفلسطينيين مسؤولون ليس فقط عن أمن المواطنين الفلسطينيين في غزة بل وعن أمن الإسرائيليين الموجودين

هناك أيضا. وسيكون عليهم المرور عبر الأراضي الفلسطينية مرافقين بالجنود الإسرائيليين الذين سيبقون.

إذن فالسؤال هو: ماذا عن حق المقاومة؟ بما أن قطاع غزة لا يزال تحت الاحتلال العسكري، فلنفترض أن طفلا يرمي حجرا على سيارة جيب. من الذي سيلاحق الطفل؟ لم يذكر شيء حول السجناء السياسيين. ما الذي يحدث لو أوقف الفلسطينيون هذا الطفل لأنه ألقى الحجارة؟ هل سيوضع في سجن إسرائيلي أو فلسطيني يديره الإسرائيليون. هذه أسئلة استثنائية تجنبتها مثلا حركات التحرير الأخرى. مثلا المؤتمر الوطني الأفريقي، ورغم أنه كسب انتصارا، وبالطبع نحن لم نكسب انتصارا، فقد رفض المساهمة في قوة الشرطة حتى يصبح في الحكومة، حتى يكون متحكما بالحكومة. ولقد قبلنا بهذا الدور مسبقا.

قبل أسبوعين كان هناك خبر في الصحافة العربية حول مائتين من الفلسطينيين من جيش التحرير الفلسطيني الذي درب قسم منه على أعمال الشرطة في غزة وأريحا، قد رفضوا الذهاب لأنهم قالوا: لا نريد أن نصبح شرطة لإسرائيل، وهذا هو المفهوم الذي يحمله معظم الناس الآن عن «م. ت. ف.». ستكون قوة تنفيذية لمصلحة إسرائيل. لذلك فالسؤال عن حق المقاومة الذي هو بالنسبة إلي وضمن القانون الدولي الذي يعطي هذا الحق، قد تم التنازل عنه في اتفاقية «م. ت. ف.».

هناك نقطة نهائية هي أن «م. ت. ف.» ستكون في صراع مع السلطات المحلية. لا تنس أن كل الأشخاص في «م. ت. ف.» الذين كنا نتحدث عنهم، بمن فيهم عرفات وكبار قادته، لم يكونوا سابقا في الضفة الغربية. لا يعرفون شيئا عنها. والصراع، وأهوال الاحتلال قد عاشها أشخاص حققوا وضعا في مجتمعاتهم مثلا، وهؤلاء عبر التضحية والإبداع وسعة الحيلة قد بقوا أحياء بأسلوبهم الخاص. وسيجدون من

الصعب جدا التنازل عن السلطة إلى «م. ت. ف.» التي تأتي من الخارج مع شرطتها الخاصة بها. لذلك يوجد كما أعتقد وضع داخلي قد يؤدي إلى نوع من النزاع المدني ولن أسميه حربا.

لقد سبق لذلك النزاع أن بدأ. وليست هي بالمجمل مسألة «م.ت.ف.» مقابل «حماس» والحركات الإسلامية في الضفة الغربية وغزة. وأعتقد أنه جرت مغالاة في تقديرها إلى حد كبير من قبل وسائل الإعلام وصانعي السياسة في الغرب لأسباب أخرى. ولكن أعتقد أن الفلسطينيين أنفسهم لن يكونوا سعداء بوسائل «م.ت.ف.». لا تنس أن عرفات أجاب مرتين في الشهرين الأخيرين على الملأ على سؤال طرحه عليه صحفي إسرائيلي وآخر عربي ألا وهو: «ما هي تجربتك الحكومية فأنت قائد لمنظمة تحرير؟» فقال: «لقد حكمت بيروت مدة عشر سنوات.» ولو انك قلت هذا لشخص لبناني أو حتى لفلسطيني عاش في بيروت خلال تلك الفترة، فلن يكون هذا أمرا يجلب تذكره السعادة، ولا هو يقدم نموذجا ممتعا إلى ذلك الحد.

د. ب.: ماذا عن التحكم بالمياه بموجب هذه الاتفاقية؟ لقد قال «ميرون بنفستي»، النائب الإسرائيلي السابق لرئيس بلدية القدس إنه حتى (٨٠٪) من المخزون المائي تحت أرضي في الضفة الغربية ستأخذها إسرائيل، ليس لأجل المستوطنات فحسب بل لضخ الماء أيضا إلى إسرائيل ما قبل عام (١٩٦٧).

إ.س.: الماء هو المفتاح وهذا أمر واضح، ولكنه واحد من مفاتيح كثيرة لها صلة أولا بالتحكم الإسرائيلي المسبق، وهي تتحكم بها الآن. هذا أولا. وكما قلت فكل مخزون مائي تحت أرضي هام في الضفة الغربية قد تم فتحه إلى إسرائيل. وهم يستخدمونه ليس فقط لري المستوطنات ولكن لضخه إلى إسرائيل. وهناك على الأرجح تمديدات تحت الأرض لا نعرف عنها شيئا في جنوب لبنان قرب الليطاني، وكانت هناك محاولات خلال

السنوات الخمس والعشرين الماضية لتحويل نهر الأردن وضخ مياهه، وكذلك روافد نهر الأردن. لذلك هناك نظام جار هنا لا وجود لأي دولة عربية وبالتأكيد الفلسطينيين أي نظام مساو له. وينطبق هذا نفسه على الأرض. لا أحد يعرف حقا ما هي الأرض التي استولت عليها إسرائيل وما هي الأرض التي تمت مصادرتها لأغراض عسكرية وما هي الأراضي التي أخذتها المستوطنات. إذا نظرت إلى القدس، إذا ذهبت وشاهدت القدس، فإن القدس الكبرى الآن تساوي ما يعادل ٢٥-٣٠٪ من مساحة الضفة الغربية. لاشيء في الاتفاقية يذكر ما سيعيدون إلينا من القدس، لأن الموضوع قد أجل حتى مفاوضات الوضع النهائي، دون أي آلية لانتقال من الوضع المؤقت إلى مفاوضات الوضع النهائي. إذن هذه إحدى المشاكل.

والمشكلة الثانية تتعلق بالماء والأرض وهي في رأيي أشد إضعافا. على الأقل في المشكلة الأولى تستطيع أن تقاتل. تستطيع أن تقول: لقد فعلتم كذا وكذا. ولكن المشكلة الأشد إضعافا هي أن الفلسطينيين حتى هذه المرحلة ليس لديهم الكميات المطلوبة من المعلومات حول ما فعلته إسرائيل. وهذا يميز العالم العربي كله، وهي مشكلة عامة، أن الناس لا تعرف حقا لأن الدولة لاتنشر إحصائيات موثوقة. كل شيء تتحكم به الإيديولوجيا والرقابة السياسية. أنت لا تعرف حقا ما يدرس. تستطيع أن ترى في الاتفاقية السرية أن كثيرا منها قد تم عن عمد لمنع غالبية السكان الفلسطينيين ذوي الوعي الجيد من التذمر أو القلق حول الوضع. وهذه تعطي مستويات من اللاكفاءة. لقد تم التفاوض على هذه الاتفاقية باللغة الإنكليزية من قبل أشخاص لا يعرفون الإنكليزية، ودون وجود محام. لذلك مثلا في حالة المياه، ليست لدينا صورة ملائمة عن وضع المياه. لا نعرف ما يكفي عما استولت عليه إسرائيل من الأراضي. لقد تحدثت إلى نبيل شعث بالهاتف بعد الإعلان عن الاتفاقية في واشنطن.

قلت له: لقد سبق للإسرائيليين أن استولوا على (٥٠ ٪) من الأرض. قال: لا. في المفاوضات تبين انهم أخذوا فقط ٢ أو ٣ ٪. قلت: هذا ليس صحيحا وبكل بساطة.

لذلك فإن اللعب بالمعلومات لمصالح شخصية أو سياسية هو إلى حد كبير جزء من المشهد. لا يوجد أي معنى يكون فيه لأي من المستقلين، مثلي أنا أو مثل تشومسكي أو آخرين، أي سلطة على حركة قررت أن هذا نصر كبير وقد كسبنا وأنها اتفاقية تكافؤ. لقد قال شعث وعرفات بأن هذه لحظة عظيمة وقد قبلنا «البيت الأبيض». أما التفاصيل كالأرض والماء فتأتي في وقت لاحق جدا جدا، حين يستيقظ الناس وحين ننمي الخبرة الضرورية لاكتشاف ما هو تحت الخطر. في هذه الأثناء فإن المستوطنات لازالت في توسع. وهي أكثر شؤما من مجرد أخذ الأرض. نحن لا نعرف حتى كم أخذت من الأرض وأين أخذتها وماذا فعلت بالمياه التي سبق أن ضخت إلى النظام الإسرائيلي. ليس الأمر وكأنك أخرجت صنبورا من هنا ووضعته في مكان آخر. لقد سبق لها وأصبحت جزءا فاعلا ضمن النظام.

وأنا أخشى أن تكون الاتفاقية رد عل غير ملائم أبدا على الوقائع.

د. ب.: وماذا عن غزة؟ كانت هناك بعض الاعترافات اللافتة للنظر في وسائل الإعلام السائدة تصفها كما هي، مكان جرى إفقاره إلى حد لا يصدق وليس فيه بنية تحتية، بل هناك فقر هائل، ومجارير مفتوحة، إلخ. ولكن في الوقت نفسه مع ذكر هذه الأمور والحاجة إلى مبالغ كبيرة من المال، لا تعليق هناك على ما كان يجري في غزة خلال (٢٦ سنة) من الاحتلال الإسرائيلي من حيث تقديم الخدمات والعيادات والطرق والمدارس وما شابه.

إ.س.: غزة أولا وقبل كل شيء مؤلفة من لاجئين إلى حد كبير. على المرء أن يفهم أن حوالي ٨٠ ٪ من السكان الذين يسكنون غزة الآن، حوالي

(٩٠٠,٠٠٠) شخص أي أقل من مليون بشعرة، ليسوا من غزة. إنهم قادمون من الشمال، من حيفا ويافا. أي بعبارة أخرى هم لاجئو عام (١٩٤٨) الذين حشروا في مخيمات اللاجئين مثل مخيم جباليا الذي يحوي (٦٥,٠٠٠) لاجئ، أو يتوزعون في كل المنطقة، أو أشخاص يعيشون في أوضاع التشرد واليأس، في حيز ضيق إلى اقصى حد. إذا نظرت إلى المستوطنات فهي تتنفس هواء الرفاهية. إنهم يعيشون في غزة وبالتالي حوالي ٩٠٪ من السكان هم في فقر مطلق، دون تغيير في البنية التحتية أو تنمية خلال السنوات الست والعشرين من الاحتلال الإسرائيلي.

لا تنس أنه في (١٩٧١-١٩٧٢) كان آرئيل شارون مسؤولا شخصيا عن إخضاع قطاع غزة. كانت غزة متمردة دائما ولأسباب عديدة. تم بناء مستوطنات كبيرة وجديدة. تم نقل الناس من مكان إلى آخر. الخطة الكبيرة لغزة كانت أن التحكم الإسرائيلي، ولم يكن ناجحا جدا أبدا، يمكن أن يتأسس ابتداء من غزة. لن يكون عليك أن تجلب قوات من الخارج عبر المستوطنات والمراكز العسكرية الدائمة في غزة، هذه نقطة رئيسية.

أما النقطة الرئيسية الثانية حول غزة فهي أن الإسرائيليين أرادوا دائما التخلص منها. لذلك لم ينفقوا الكثير من المال فيها. أنظر إلى الأرقام التي استخدمها رابين في مؤتمره الصحفي، والذي أظنه أكثر أهمية من أي شيء قاله علنا حتى الآن. لقد تكلم رابين حول مبلغ الـ (٣٥٠) مليون دولار سنويا كان ينفقه على الضفة الغربية وغزة. ولكنك لو نظرت إلى الوضع الفعلي للمياه في غزة، ذات المجاري المفتوحة وعدم وجود الكهرباء وعدم توفر وسائل الصحة العامة أو نقل القمامة، وفوق ذلك كله عدم توفر سوق العمل، بما أن اقتصاد غزة يعتمد بالكامل على الأشخاص الذين يذهبون للعمل كمياومين في إسرائيل، فترى أن غزة كانت في حالة ركود. لقد أصبحت واحدة من اكثر البقع على الأرض قذارة وفقرا.

ولكن وما هو أهم من هذا، هي أن غزة أيضا مكان فيه الكثير من الثروة. هناك نزاع هائل بين العائلات الكبرى. فغزة، شأن أماكن كثيرة من فلسطين، تتميز بأن فيها أسرا كبيرة من ملاك الأراضي التي تملك العقارات في غزة وتعيش حياة لا علاقة لها أبدا بوضع الفقراء والمياومين واللاجئين الذين هم غالبية السكان. هناك مشكلة اجتماعية هامة. وبسبب هذا، فإن غزة مكان تكون فيه الحركات الإيديولوجية الأكثر جذرية، سواء كانت إسلامية أو لا إسلامية، الجبهة الشعبية، الحزب الشيوعي وحماس، قوية جدا. وهم يعتمدون على مخاطبة القضايا الاجتماعية في غزة، وليس فقط الاحتلال ولكن الوضع الداخلي أيضا.

لم تعالج الصحافة أبدا هذه الأمور. ويحصل المرء على انطباع بأن غزة مكان يعيش فيه الفلسطينيون وقد تخلى عنه الإسرائيليون في تصرف من النوع «الذي تقتضيه النبالة»، وهكذا دواليك، دون إدراك لحقيقة أن غزة كانت دائما قطرسا حول عنقهم. وقبل ستة اشهر فحسب فإن كلا من رابين وبيريز قالا: «نتمنى لو تختفي غزة، لو تسقط في البحر». هذه الجمل قد استخدمت. غزة هي المكان الذي انطلقت منه الانتفاضة، حيث وقعت معظم الإصابات التي تعرض لها الأطفال. إن فيها أكبر نسبة من الأفراد تحت سن الخامسة عشرة وتصل إلى ٦٠ ٪ من مجموع السكان. إذن في خضم كل هذا، أن نتحدث عن إصلاح البنية التحتية في غزة فكرة نبيلة، ولكن ما أخشاه هو أن غزة ستتحول، لأن إسرائيل تتحكم بالميناء، إما إلى بركة كبيرة من الأيدي العاملة الرخيصة غير المنظمة، تبيع خدماتها إلى الإسرائيليين، أو ستصبح مركزا للصناعة نصف الماهرة وستكون على الحدود شأن البلدات المكسيكية كتيخوانا، التي تزود كاليفورنيا بالعمال وخدم المنازل أو عبر معامل التجميع والمصانع الصغيرة، أيد عاملة رخيصة، وهذا أمر مقلق جدا. حين كنت هناك في أوائل تموز (يوليو) من عام (١٩٩٣)، كان هناك الكثير من

المضاربات على الأراضي، حتى قبل الإعلان عن الاتفاقية، وحدث ذلك في أريحا أيضا. لقد عرف الناس بأمر هذه الإمكانية. لقد جرى التحدث عنها منذ منتصف ربيع هذا العام. إذن هناك الكثير من المضاربات على الأراضي. والمضاربة على الأراضي تعني عدم بناء المنازل للاجئين، ولكن بناء المنتجعات والفنادق والمراكز السياحية وهذا دواليك. من المحتمل أن يتطور الوضع في غزة على نحو بائس إلى حد استثنائي، كما أعتقد.

د. ب.: أعرف أن الموسيقى جزء هام جدا من كيانك وكينونتك. أرى نوعا من المجاز هنا من خلال ما تطور. لقد قلت دائما إنك أحببت الموسيقى التي تستجيب فيها الأصوات الواحد مع الآخر، وتتباين الواحد مع الآخر، نوع من الخط الأفقي بالتعارض مع الخط الشاقولي الذي تمثله الموسيقى أحادية الصوت. هل هذا مجاز لما سيحدث في هذه المفاوضات، من خلال فقدان هذه الأصوات؟

إ.س.: لن أقول ذلك لأن الطباق واضح تماما. لهذا كنت شديد الانتقاد للاتفاقية. لقد كانت إسرائيل في حاجة فعلا لشريك فلسطيني حتى تقدم تسوية تستطيع معها العيش براحة، ويمكن أن تكون اتفاقية رائعة، ليس فقط لعلاقاتها مع الفلسطينيين، ولكن أيضا لعلاقاتها مع العرب الآخرين وفوق كل شيء لأجل صورتها العامة، التي هبطت إلى مدارك جديدة بسبب «الانتفاضة»، وغزو لبنان في تموز (يوليو) ١٩٩٣ إلخ. ولهذا السبب ألوم قيادة «م. ت. ف.» لما فعلته. وقد عرفوا أ ن ورقتهم الأساسية كانت الصوت الآخر للإسرائيلي. وبدلا عن تقييم ذلك وفهم انه لا يمكن تحقيق السلام مع الفلسطينيين دون «م. ت. ف.»، قام عرفات ليخدم نفسه في لحظة من لحظات الانحطاط الخاصة في حياته المهنية، بالتضحية بالورقة الوحيدة التي تركت لديه ليلعبها ضد إسرائيل، وهي أن يعطيهم المحادث المحاور الفلسطيني، ما كان الفرنسيون في الجزائر يبحثون عنه دائما، ما رفضت جبهة التحرير الوطني أن تعطيه

لهم: «المحادث المحاور الموثوق». وقد فعلت «م. ت. ف.» ذلك، والاحتلال لا يزال قائما، مع تدمير «الانتفاضة» و«م. ت. ف» في اضعف لحظاتها.

لقد كانت تلك صفقة ناجحة جدا للإسرائيليين، ولذلك استطاعوا القول: «لدينا شريك». ولكن الشريك نوع من التقليد الساخر لأنفسهم. إنه ليس شريكا حقيقيا، شريك يمثل طموحات وآمال الشعب الفلسطيني. بل هو في الواقع طرف طرح عن نفسه تاريخه وقدرته على تمثيل شعبه. لذلك هناك حمل رئيسي الآن، فالفلسطينيون في الدياسابورا هم الذين صنعوا «م ت ف.» و«م.ت.ف.» ليست من إنتاج الضفة الغربية وغزة اللتين هما تحت الاحتلال. إنها من نتاج الدياسابورا. لذلك فالموضوع الرئيسي لدينا اليوم، نحن الملايين الثلاثة، اكثر من نصف السكان الذين سيكون على «م. ت. ف.» الاعتماد عليهم وهي تحاول تطوير حكمها الذاتي إلى ما هو افضل من الوضع الحالي أو حتى مما تسمح به الاتفاقية الحالية، هو المزيد من الديموقراطية. والأمل الرئيسي الذي لدينا هو أن نعيد تنظيم أنفسنا ونبدأ بمطالبة «م. ت. ف.» كممثل لنا بالمزيد من التمثيل والمزيد من الديموقراطية، وأن تضمن مثلا أن الانتخابات التي ستجري حسب ما هو مفترض بين ستة وتسعة أشهر من الآن، ستجري فعلا. وضمان أن تجري رغم حقيقة أن كثيرا من المعلقين الإسرائيليين يقولون إن الاتفاقية السرية بين رابين وعرفات كانت على عدم إجراء الانتخابات، وتأجيلها حتى تستطيع «م. ت. ف.» الاستمرار في الحكم. علينا أن نضمن حصول الانتخابات. وعلينا أن نضمن وجود تحميل للمسؤولية. لا يمكن لقادتنا أن يقولوا: نحن نعرف أفضل وسوف نقوم به. إذا أردنا المساهمة فإن سعر المساهمة يجب أن يكون المساهمة الكاملة وليس مجرد إعطاء المال والدعم والتصريحات العامة بالمشاعر الطيبة، ولكن الانخراط الفعلي في ذلك. أعتقد أن هذه هي المشكلة الرئيسية.

هناك ناحية أود ذكرها وهي هامة على نحو استثنائي، وقد تبدو حمقاء أو تافهة ولكن الحال على ما هو عليه منذ سنوات كثيرة، ألا وهو عدم وجود إحصاء رسمي فلسطيني. وفي السنوات العشر الماضية كان البعض منا يحاول أن يقول ذلك. ما نريد أن نعرفه حتى نعطي تفويضنا السياسي صورة اكبر هو أن نقول من نحن وأين نحن. لقد عارضت الدول العربية دائما إجراء الإحصاء. هم لا يريدون أن يعرفوا. لا يريدون إحصاء عاما للفلسطينيين ولا يريد ذلك الإسرائيليون أيضا. وأعتقد الآن أن المطلب الأساسي يجب أن يكون، وأنا أقول هذا على الملأ، كما قاله كثيرون آخرون، هو أننا نريد إحصاءا فلسطينيا في كل بلد يقيم فيه فلسطيني حتى يمكن تنظيم اجتماعات للفلسطينيين. مشكلتنا هي الانتشار والتمثيل. لا يمكنك الحصول على التمثيل ما لم يتم تشخيصك كفلسطيني له اهتمام مباشر في استمرار وجود الحياة الفلسطينية على التراب الفلسطيني. ولهذه الغاية أعتقد أنه من المهم جدا أن قضايا كالانتخابات والمؤسسات التمثيلية في الضفة الغربية والأماكن الأخرى يجب أن ترتبط بقضية الإحصاء وألا تترك الأمور على نحو نقول معه : «فلنجر الانتخابات ولنتأكد من أن جماعتنا سوف تكسبها». ليست هذه هي الفكرة. أي بعبارة أخرى إن الفترة القومية يجب أن تنتهي وعلينا الآن أن ندخل فترة جديدة من التحول الاجتماعي والسياسي، تأخذنا إلى مستوى آخر حيث يساهم الناس وحيث تتم تعبئتهم ولا يتركون هكذا لمزاج القائد.

وحتى هذا اليوم لم يشرح عرفات على الملأ موقفه أمام الشعب كما هو حقا. اعتقد أن عليه أن يفعل ذلك. كان عليه أن يقول: «بسبب أخطائي، وبسبب سوء تقديراتنا في حرب الخليج، هذا هو البديل الوحيد الذي لدينا. وعلي أن أسألكم: هل تتقبلونه؟ إذا كان الجواب نعم، سنوقعه. وإذا كان الجواب لا، فسوف استقيل من منصبي.» لم يفعل

ذلك. عبد الناصر فعل ذلك في حزيران (يونيو) ١٩٦٧. لم يشرح لشعبه السبب في رفضه لبدائل كثيرة في الماضي. بعض هذه البدائل كنت أنا على علاقة بها. كان بإمكانه الحصول على صفقات افضل بكثير وذلك من الأمريكان والإسرائيليين في السبعينات والثمانينات، ولكنه رفضها كلها. إذن لماذا كان يوفر نفسه حتى هذه الصفقة بالذات؟ هذا سؤال يحتاج إلى جواب. لم تتم الإجابة عليه.

د. ب.: كان «سول لينوفيتز»، أحد مفاوضي كامب ديفيد تحت إشراف كارتر، في احتفال «ماك نيل – ليرر» في إحدى الليالي مع المتهمين المعتادين: «كيسنجر» – «برزنسكي» و«برنت سكوكروفت». قال لينوفيتش: «من المحزن حقا انه بينما هو سعيد جدا، لأن الفلسطينيين كانوا قادرين على الحصول على كل هذا وأكثر في كامب ديفيد في عام (١٩٧٩)». أتساءل كم في هذا من الهندسة التاريخية؟

إ.س.: هذا صحيح. لا أعرف عن كامب ديفيد. في خريف عام (١٩٧٨)، وأقول هذا علنا للمرة الأولى، فقد التقيت، عبر «هودينغ كارتر»، وهو زميل دراسة كان يعمل في إدارة كارتر، بوزير الخارجية «فانس» في نيويورك أكثر من مرة. ولقد تناقشنا. قال إنه لا يريد التحدث إلي. أراد التحدث إلى عرفات. قلت أستطيع ترتيب ذلك. قال: لا، هناك قواعد، وهناك سلفي في المنصب – ما كان يشير إلى كيسنجر أبدا إلا على أنه «سلفي في المنصب» – نحن محظور علينا التحدث إلى«م. ت. ف.». قال: «لدينا صيغة أود أن تنقلها إلى رئيس المنظمة عرفات». والصيغة هي أن تقبل «م.ت.ف.» القرار (٢٤٢) مع التحفظ بما أنه لا يذكر الفلسطينيين، وأن حقوق الشعب الفلسطيني في تقرير المصير الوطني لا تزال هدفا لها. عندها ستعترف الولايات المتحدة بـ«م. ت. ف.» وتبدأ بالتفاوض مع عرفات مباشرة، وثم تؤسس المفاوضات مع إسرائيل.

رأيت أنها فكرة جيدة. أرسلت رسالة مع شفيق الحوت، الذي كان في نيويورك في الأمم المتحدة، وذلك مباشرة إلى عرفات. انتظرت أسابيع ولم يردني جواب. ثم هتف لي «فانس» في بداية عام (١٩٧٩) قبل توقيع اتفاقية كامب ديفيد بقليل وقال: أود أن أعرف ما كان جواب رئيس المنظمة عرفات. قلت: لم اسمع منه شيئا. قال: سأملي عليك النص مجددا لتتأكد من أنه يلائم المعايير. لذلك في آذار (مارس) ١٩٧٩ سافرت بالطائرة إلى بيروت ومضيت لأرى عرفات. قلت له: نحتاج إلى جواب. فكان أول شيء قاله لي: لم استلم أبدا. لذلك ولمدة عشر دقائق على الأقل بدأ ينكر أن أي رسالة وصلت له. ولحسن الحظ كان شفيق الحوت جالسا معنا في الغرفة وقال: لقد سلمت الرسالة لك. قال عرفات: لا أتذكرها. ذهب شفيق إلى الغرفة المجاورة وجلب نسخة منها، نظر عرفات إليها وقال: حسنا غدا سأعطيك الجواب. وفي اليوم التالي عاد مع حوالي خمسة عشر من مرافقيه، بمن فيهم أبو جهاد وأبو إياد، الأركان العامة للشعب الفلسطيني. دخلوا. جلس، قال: إدوارد، أريدك أن تقول لفانس إننا لسنا مهتمين. قلت: لماذا. قال: لا نريد الأمريكان. الأمريكان طعنونا من الخلف. هذه صفقة قذرة. نريد فلسطين لسنا مهتمين بأجزاء من فلسطين. لا نريد التفاوض مع الإسرائيليين. سنحارب.

كان هذا في عام (١٩٧٩). كانت هناك صفقات كثيرة مرت عبر الثمانينات بينما هو يصبح اضعف فاضعف. لم تكن لديه قوات يأمرها. كان من الواضح لي، على أي حال، في السبعينات انه ليس لدينا خيار عسكري ضد إسرائيل، أكثر مما كان لديهم ضدنا، ولكنه رفض الصفقات. هذا جزء من السجل التاريخي، وهو يجب أن يعرف. أعتقد أن القيادة الفلسطينية يجب أن تسأل الآن عن ذلك، وهي تحاول تجنب الأسئلة، وتحاول التقدم في مسيرة عظيمة نحو ما يطلقون عليه أي اسم

كان. هذه الأسئلة يجب أن تسأل حتى نعرف إلى أين هم ماضون.

لا أقول إن علينا أن نكون مثل الملك «كانوت» [ملك إنكلترا والدنمارك والنرويج ٩٩٥- ١٠٣٥] ونقول علينا أن ننسحب من الاتفاقية ولكن علينا أن نعرف ما في هذه الاتفاقية. من أين أتت وأين من الممكن أن تمضي.

د. ب.: فلنتحدث عن وسائل الأعلام وكل تلفيقاتها حول هذا. هناك جوقة موحدة تقريباً من الشعور بالنشاط و الخفة في الولايات المتحدة. ماذا عن وسائل الأعلام الأوربية التي تراقبها ؟ هل يوجد أي فرق هناك؟

إ.س.: لقد أُجْرِيتْ معي كثير من المقابلات في وسائل الإعلام الأوربية حيث عبرت عن تحفظاتي، وحصل ذلك على المزيد من الاهتمام. لقد بدأ الناس بطرح الأسئلة. هناك محاولة للغوص تحت السطح. في أمريكا، ويؤسفني قول هذا، باستثناء منافذ قليلة وأفراد قلة، وأعتقد أن الأفراد هم أولئك الذين يصنعون الفرق، فإن وسائل الإعلام كانت استثنائية. قبل شهر فحسب كان عرفات أكثر الأشخاص شراً في العالم. وكان يعتبر إرهابياً. لم تكن هناك مقابلة واحدة لم يظهر فيها بشكل سيئ. وكانت الأسئلة دائماً هي: «لماذا أنت إرهابي؟» وكانت الفكرة الوحيدة التي تعزى له هي أنه كان يخطط لاغتيال الأطفال والنساء الأبرياء من اليهود. وخلال ساعات قليلة أعيد تأهيله. لقد تحول إلى شخصية محبوبة. لقد أحبه الأمريكان. قالوا إنه رجل دولة. وأنا أفهم ذلك، حين ذهب إلى الكونغرس كان السناتور دول والسناتور ميتشيل، بين آخرين، واقفين بالدور للحصول على توقيعه. هذا النوع من التغير الكامل في الاتجاه والمواقف دون خجل يضع حداً، إن كانت هناك حاجة لذلك، لأسطورة وسائل الإعلام المستقلة.

توجد وسائل الإعلام على نحو رئيسي كمظهر جذاب فحسب للقوة والسياسة الأمريكيتين. ورغم وجود كثير من القصص حول كيف أن

الولايات المتحدة أخذت بالمفاجأة في هذا التطور فإن ما لم يلاحظ هو أن الفروق بين هذا التطور وما أرادت الولايات المتحدة دائماً هي أمور تجميلية. وحتى لو يكن «آرون دافيد ميلر» و«دنيس روس» و«دان كروتسر» و «إدوارد جرجيان» و«وورن كريستوفر» الذين هندسوه فعلاً، فإن ما برز في الحقيقة كان شيئاً ما لم يستطيعوا إلا أن يسعدوا به. فهو يعطي بالفعل إلى نائبة الولايات المتحدة، إسرائيل، قوة إقليمية هائلة، لقد أصبحت قوة إقليمية عظمى. و أخيراً وكما قال «كريستوفر» و«بيكر»، فهذه هزيمة للتطرف العربي والقومية العربية. إذن فهذه اتفاقية تعيد الولايات المتحدة إلى مقعد السائق، وتعطيها مجدداً مكانة القوة العظمى، وتسمح لها باستخدام هذه الاتفاقية لضمان فتحها أمام الأسواق والمصادر في الخليج، وفلسطين مدخل هام لها.

ووسائل الإعلام لم تؤد عملها ببساطة. لقد كانت مجرد جوقة أخرى غبية - في رأيي - في اختيارها للأصوات والمتحدثين وهكذا دواليك. ويا للأسف، و أقول هذا بخجل وبؤس شديدين، فالفلسطينيون قد أعادوا إنتاج الأنواع الصحيحة من المتحدثين ليكونوا جزءاً من هذه الجوقة. والناس الذين كانوا في الماضي وحتى لأسبوع مضى من أتباع «فانون» تغيروا الآن واصبحوا من مؤيدي سنغافورة والأسواق المفتوحة والتنمية. إنهم لا يفعلون شيئاً للجمهور الفلسطيني الحقيقي، وهو عبارة عن فلاحين دون أراض، ولاجئين دون دولة، وكسبة يعملون بأجر رخيص بأعمال كالرق، وهذا يحافظ على سيطرة العائلات التقليدية والقيادة التقليدية.

لذلك أعتقد أن وسائل الإعلام قوية جداً. إن «السي إن إن» لديها يد طولى إلى حد لا يصدق. ولكن من خلال لغة الاضطلاع على المعلومات، فهي ليست كذلك. إنها تؤكد ببساطة النظام الايديولوجي العالمي، الذي تتحكم به الآن، كما أعتقد، الولايات المتحدة وقلة من

حلفائها في أوربا الغربية.

د. ب.: فلنقل إنك شخص عادي على شاطئ. وأنت على وشك أن تحاصر بموجة مديَّة من المعلومات وفقدان المعلومات. كيف تبقى دون بلل ؟ كيف تشق طريقك عبر شبكات خداع وسائل الإعلام؟

إ.س.: هناك مَلَكتان نمتلكهما جميعاً وعلينا استخدامهما في وضع كهذا، حين يكون هناك هجوم ساحق إعلامي كهذا، وهناك عادة هجوم كهذا حين تكون قصة واحدة هي محور القضية. وهاتان هما أولاً الذاكرة. علينا أن نتذكر ما قالوا في اليوم السابق وهو في العادة العكس بالضبط. والملكة الثانية هي الشك. الأولى تأتي من المرور بتجربة هذه الأمور. إذا تذكرت كمتفرج على التلفزيون، كشخص أمريكي، فأنت قد رأيت «عرفات» يُشتم على انه إرهابي، وفجأة يبدو كشخص لطيف لمجرد أنه يتلفظ بكلمات قليلة، فتعرف أنت أن شيئاً ما على خطأ. لايمكن أن يحدث هذا بتلك السرعة. وثانياً فإن الشك جزء من ملكتك الفكرية والنقدية. يبدو لي أن عليك أن تفعل ذلك مع أي بند من بنود الأخبار. وأن تحاول أن تسأل عما هو أكثر مما يقدم في العشرين دقيقة التي تسمى قانونيا «ساعة الأخبار». أعتقد أن أي شخص يستطيع فعل ذلك. هناك دائماً مصادر معلومات بديلة: هناك الكتب والمكتبات. عليك فقط أن تمارس تلك المهارات وترفض السماح لنفسك بأن تصبح مجرد شخص بليد يمتص المعلومات ببساطة، وقد أصبح مسبق البرمجة، مسبق الأدلجة، لأن أي رسالة على التلفزيون ليست مجرد أي شيء بل عبارة عن صفقة ايديولوجية تغلغلت عبر نوع من أنواع عمليات المعالجة.

د. ب.: هناك أيضاً القوة المبهرة لمصباح كليغ [المستخدم في التصويرالسينمائي] وسلطة الصورة.

إ.س.: هنا أجد أنه من المخيب للآمال جداً أن ترى مثقفين آخرين مأخوذين تماماً بذلك. لم أجد أبداً أن من المثير للاهتمام أن أكون قريباً

من السلطة. أعتقد أن السلطة تحتاج دائماً إلى تصحيح من قبل أمانة المفكرين وضمير الذاكرة. والأمر المثير لسخرية هنا كبير جداً وهو أنه بعد حرب عام (١٩٦٧)، وحين برزت الحركة الفلسطينية، كنا مشهورين في تلك الحركة على أننا نُقّاد. كنا أول عرب في أدبنا، في خطاباتنا، وكتاباتنا مثلاً، نستخدم كلمة «إسرائيل». كل الآخرين كانوا يقولون «الكيان الصهيوني». كنا أول من تعامل مع الواقع. لقد انتقدنا الأنظمة العربية التي فشلت في عام (١٩٦٧). الأدب الفلسطيني، التحليل العلمي والسياسي، كان أول أدب يستخدم الحواشي. قلنا إن علينا أن نكون مسؤولين عما نقوله وأننا كنا نتقدم بأسلوب منظم ومنضبط وصادق فكرياً.

لم يعد هذا كله موجوداً الآن. الأدب الفلسطيني الرسمي هو جوقة مصادقة على ما تقوله القيادة. لقد أصبحنا، بالفعل، كما هي الأنظمة العربية الأخرى. إن مأساة عرفات هي أنه لا يرى نفسه كقائد لشعبه. ورغم أنه بأسلوبه الشخصي والشعبية التي لا يزال يتمتع بها لا يزال شخصاً بسيطاً. إنه لا يحب السيارات الكبيرة والقصور الفخمة. لا يزال يعيش بتقشف. ولكنه رأى نفسه كقائد يعاشر دون كلفة الملوك والرؤساء، وأعتقد أن تلك الخسارة للقدرة على رؤية الأشياء وخاصة بين المثقفين، كانت أسوأ الأمور. إنها إغواءات السلطة. متع السلطة. غياب الحوار. أي نظرياً ما على المثقفين دحضه.

د. ب.: قال «غرامشي»، وأنت معجب به جداً، إنه متشائم من الفكر ومتفائل بالإدارة. هل يضيف هذا شيئاً إلى نضالك الشخصي؟

إ.س.: أجل يجب أن يرتبطا سببياً. أقول إن تشاؤم الفكر أولاً ثم تفاؤل الإرادة مبنيان على تشاؤم الفكر. أي بعبارة أخرى لا تستطيع أن تقول مجرد القول: «الأمور سيئة، ولكن لا يهم، سأتقدم». بل عليك أن تقول إن الأمور سيئة ثم تحللها فكرياً. وعلى أساس ذلك التحليل سوف

تبني حركة نحو الأمام مبنية على التفاؤل، القدرة والرغبة والمشيئة بالتغيير. ولكني لا أجد القضية تنطبق هنا، حيث هناك تفاؤل من بداية محاولة تحويل، بعملية سحرية، ما هو بالفعل اتفاقية كارثية إلى أمر رائع. إنهم يقولون إنها مساواة، افتتاح، قدم على الباب، ستغير كل شيء. هذا يبدو لي على أنه لا مسؤولية. ليس هذا تفاؤلا للإرادة. هذا تفكير سحري. كان «غرامشي» حريصا جدا دائما على أن يقول إن عمله يمثل العمل الدنيوي وأن هذه كانت أجزاء ما أسماه غزو المجتمع المدني. لم نقم بالعمل الدنيوي بعد. لا تزال أمامنا طريق طويلة بعد. ولكني أعتقد أن ذلك سيحدث. وبما أن الفلسطينيين قد بدأوا يفركون أنوفهم على حقائق هذه الاتفاقية ويكتشفون عناد الاحتلال الإسرائيلي الذي سيستمر، فسوف يفهمون أن الطريق الوحيد إلى الأمام هو المقاومة المستمرة.

د. ب.: لقد قلت إن «ما كان هاما جدا بالنسبة لي هو معنى مجتمع وحركة في حالة تقدم أنا ملتزم بها ومتورط فيها.» ما هي الاتجاهات التي ترى نفسك متحركا فيها الآن؟

إ.س.: على نحو أساسي أجد نفسي للمرة الأولى في خمس وعشرين سنة منقطعا عن أعداد كبيرة من المجتمع الذي شعر لأي أسباب كانت، ومعظمهم على نحو مفهوم، بالراحة، برغبة في القبول، برغبة في رؤية نهاية قريبة وفي المتناول. أشعر بنفسي منقطعا عن هؤلاء الناس، هؤلاء الفلسطينيين الأسعد مني بكثير. لذلك أنا الآن نوع من الصوت الوحيد. الشيء المهم هو محاولة التعبير عن آرائي على نحو إيجابي قدر الإيجاب وألا أقول فحسب: «كل شيء سيئ، يالها من كارثة. أو أنه لم يكن علينا أن نفعل ذلك». لم أقل ذلك أبدا. ولكني سأحاول أن أقول: «هذا هو الوضع وهذا ما نحتاج إلى أن نفعله لتحسينه». هذا صعب جدا أن أفعله لوحدي. ولكني أجد المزيد والمزيد من الناس الآن مع انقضاء الشعور بالخفة والنشاط ومع انقضاء الاحتفال ومع حصول الناس على

فرصة التفكير. لقد بدأ الناس يدركون أن عليهم الاتكال على أنفسهم. لو أن قادتهم قد وعدوهم بأشياء لا يستطيعون تقديمها، عندها يكون عليهم أن يسألوهم: «لماذا فعلتم ذلك؟».

د.. ب : أنت تتطلع إلى، كما يقول «إليوت»: ((ذلك الصدى الآخر الذي يسكن الحديقة)).

إ.س.: هذا أمر صوفي. ولكني أفكر أن ما يحتاج إليه المرء هو الاستيقاظ على حقائق وصعوبات الوضع الحالي. ولكن إن لم نستطع فعل ذلك، عندها كمثقف عليك أن تستمر رغم التهميش والوحدة اللذين تشعر بهما.

فلسطين
خيانة التاريخ

١٧ شباط (فبراير) ١٩٩٤

دافيد بارساميان: منذ آخر حوار لنا في أواخر أيلول (سبتمبر) فقد قدمت سلسلة من التدخلات في وسائل الأعلام المختلفة حول العالم. هناك مسار ثابت في نقدك لـ«م. ت. ف». وقد توج ذلك في ندائك لعرفات مطالباً إياه بالاستقالة. لماذا تريد من الرجل الذي مثّل القضية الفلسطينية خلال مثل هذا الزمن الطويل أن يتنازل؟

إدوارد سعيد : هناك عدد من الأسباب. ليس الأمر موجهاً إلى ذلك الحد كله ضد الرجل بقدر ما هو موجه ضد الأسلوب والقيادة اللذين يمثلهما. إنه رجل لطيف تماماً. أنا على ثقة من ذلك. كان صديقاً جيداً لي لفترة طويلة. لقد أعجبت بقيادته. وأعتقد أنه بمعنى من المعاني قد وصل إلى نهاية أي دور مفيد يستطيع لعبه. في المقام الأول أعتقد أن أحداث فترة آب (أغسطس) ١٩٩٠ وحتى الوقت الحاضر كانت عبارة عن انحدار مطرد في حظوظ الفلسطينيين. وكونه قائداً لذلك الانحدار، وكونه الشخص المسؤول عنه، وقد آن أو آن أن نقوم جميعناً لنقول: كفى! لقد ضحى بمصلحة مئات الآلاف إن لم نقل ملايين الفلسطينيين نتيجة لموقفه خلال حرب الخليج. لقد دخل في مفاوضات علنية لم تُدرس جيداً

ولم يحضّر لها جيداً، مع إسرائيل في مدريد في العام التالي (١٩٩١). وقد ضلل شعبه في الضفة الغربية وغزة ليقوموا بمفاوضات مع الإسرائيليين حول ما كانت في النهاية شروطاً تستحق التقدير، بينما كان طوال الفترة يخرب ما يفعلونه بمحاولته عقد صفقة سرية خلف الستارة مع الإسرائيليين وأخيراً ختم كل هذا بمفاوضات سرية كارثية ولا شرعية في رأيي تماماً - ليس الأمر أن لدينا كل وسائل الشرعية بالطبع، ولكنها لا شرعية ضمن إطار عمل المجتمع المدني الفلسطيني، كما هو، وذلك مع إسرائيل في أوسلو. وقد قرّر هذا نهائياً مصير أكثر من نصف الشعب الفلسطيني، أولئك غير المقيمين في الضفة الغربية وغزة. لقد تم استثناؤهم. لقد تنازل عن كل شيء إلى الاحتلال الإسرائيلي على أساس اعتراف هش جداً من قبل إسرائيل بأن «م. ت. ف.» ممثل للشعب العربي الفلسطيني، ولاشيء آخر. ما حصل عليه في غزة وأريحا مثير للضحك تقريباً، إذا أخذنا بعين الاعتبار تضحيات ملايين وأجيال الفلسطينيين الذين ضحوا بحياتهم في هذا النضال. هذا هو الاتجاه العام لفشل ذلك الإعلان الخاص عن المبادئ.

ولكن خلف ذلك، على مستوى الكفاءة التقنية، لم يكن لديه أي مستشارين قانونيين لمساعدته. هو لا يعرف الإنكليزية. لقد تفاوض مع الإسرائيليين بالإنكليزية. ثم أبرم صفقة تم تنظيمها بسرعة فائقة بحيث تركت كل القوة بين يدي إسرائيل، أي الجيش والمستوطنات والأراضي والسيادة والقدس.

ومنذ ذلك الحين فقد جعل الأمور أسوأ بمحاولة الإبقاء على السيطرة في يديه، مستمراً في رأيي بإفساد شعب بكامله بطرق المحسوبية وشراء الضمائر وضرب الناس بعضهم ببعض، كل هذا مع الاهتمام الوحيد بعدم تحسين حال الفلسطينيين الذي اصبح أسوأ، ولكن مع البقاء في السلطة والآن ينشد هو اختيار المزيد من الفلسطينيين

لإنشاء سلطة اقتصادية هو رئيسها، حتى تكون أي مساعدة قادمة تحت سيطرته. لقد نقل عن لسانه أنه أعلن للصحافة الإسرائيلية أنه لو كان معي (٥٠) مليون دولار لتخلصت من مشاكلي ولن تكون هناك معارضة. سيشتريهم. وكانت آخر خدعة إنشاء محطة تلفزيون وإذاعة في الضفة الغربية وهو المسيطر عليها، ويقول نحن لسنا مستعدين لإنشاء صورة مكررة عن إذاعة بغداد.

لقد غرّب أي شخص لا يتكل عليه تمام الاتكال في معيشته، وقد تخلى عنه كل شخص ذي كفاءة ومبادئ. وأنا اشمل أشخاصاً مثل محمود درويش وشفيق الحوت. إن موضوعة المفاوضات الفلسطينية، كما هي، مع إسرائيل، ليست مجرد لغز، فهي فضيحة من حيث سوء التنظيم. إن «م. ت. ف.» تحت قيادته لم تنتج حقيقة واحدة حول حقائق الاحتلال، مع العلم أنه ليس بين المفاوضين، شأنه وشأن نبيل شعث، من رأى الاحتلال بعينيه. لذلك هم لا يعرفون عما يتحدثون حين يتحدثون عن المستوطنات والاحتلال.

الواقع هو مجتمع عنيد وآخذ بالتفكك كلياً دون مؤسسات تبقت على الإطلاق. ليست هناك قوة محاربة. ليست هناك مؤسسات اجتماعية ولا مؤسسات صحية أو مؤسسات تعليمية. هناك تجمعات سكانية كبيرة وفقيرة من الفلسطينيين في أماكن كغزة وبيروت ودمشق وعمان، دون رعاية، وهو المتحكم الوحيد بالأموال. وهو لا يحاسبه أحد. هو الوحيد الذي يستطيع توقيع الشيكات، هو الشخص الوحيد الذي يعرف أين هي الشيكات، وربما تعرف زوجته الآن شيئاً ما. ولكن أقرب المقربين إليه، مثل أبو مازن وياسر عبد ربه وربما واحد أو اثنان آخران يرفضون حضور الاجتماعات معه. أبو مازن، كما قيل لي مؤخراً، الرجل الذي وقع الاتفاقية في واشنطن مع بيريز في (١٣) أيلول (سبتمبر) قال إنه لن يذهب إلى أريحا بل طلب اللجوء السياسي في المغرب.

إذا أخذنا كل هذا في الاعتبار، وأنا لم أخدش سوى السطح وبالكاد، فإنه من الواضح أنه لا يستطيع الاستمرار.

د. ب.: لسنوات كنت تعرف بعلاقتك الوثيقة بالقضية الفلسطينية والناطق الرئيسي لها في الولايات المتحدة.

إ.س.: لم أمثل أحداً. كنت أقوم بذلك على نحو شخصي.

د. ب.: ولكنك أكثر شخصية مرئية في وسائل الإعلام، وخاصة في الولايات المتحدة، إن ما تصفه يجب أن يكون أكثر إحباطاً لك.

إ.س.: إنه مؤلم للغاية. فيما يتعلق بالمجال العلني في الولايات المتحدة وفي الغرب عموماً، فإنه من الصعب الآن الوقوف والتحدث عن حقوق الفلسطينيين حين يكون الإدراك الشعبي، الذي تم التلاعب به على نحو لامع جداً من قبل الإسرائيليين وإلى حد معين من قبل إدارة كلينتون، أن الصراع قد تمت تسويته، الفلسطينيون ستكون لهم «دولة». القضايا المتنازع عليها منذ زمن طويل بيننا وبين الإسرائيليين قد تم حلها بطريقة مرضية ومشرفة. وعلى أي حال، وكما قلت، فإن قائد الحركة الفلسطينية، «السيد فلسطين نفسه» وقع على الخط المنقط وقال: ياله من أمر جميل! ويقال على لسانه اليوم في «نيويورك تايمز» إنه عبَّر عن بعض خيبة الأمل من الأمريكان لعدم تقديمهم المساعدة بقدر ما كان يأمل منهم. وهذا بعد أن قال علناً في مناسبات عديدة أن له صديقاً في البيت الأبيض. وأي شخص لديه أي معرفة بسيطة بسياسة الولايات المتحدة وحقائق الولايات المتحدة، وكل هذا رفضت القيادة الفلسطينية أن يكون لها معرفة مباشرة بهما، وذلك لمجرد الكسل والجهل، كان يمكنه أن يقول له إن هذه محض حماقة. والصعوبة طبعاً تكون حين يطلب إليه التحدث والكتابة. أنا في موقع غريب لأنني لا أنتقد الإسرائيليين لسياساتهم الاحتلالية ولكن الفلسطينيين الآن أيضاً. وهناك أيضاً مشكلة وجود القليل جداً من النشاط الفلسطيني في هذا البلد [الولايات

المتحدة]. يعبر القليل جداً من الفلسطينيين عن رأيهم بحرية ووضوح أو يطلب إليهم ذلك أو يستطيعون ذلك. لذلك يشعر المرء بالبؤس.

أول ترتيب عملي لي ليس الكتابة كثيراً في هذا البلد وفي الغرب عموماً، ولكن بالعربية. اكتب مقالاً مرتين في الشهر وينشر على نحو واسع في العالم العربي.

د. ب.: هل تجد أن أفكارك تناقش على نحو واسع؟

إ.س.: لقد تلقيت كمية هائلة من الردود. وقد طلب مني الناس القدوم إلى الشرق الأوسط ولعب دور سياسي اكثر مباشرة في مراكز التجمعات السكانية الفلسطينية الكبيرة مثل الأردن وحتى بيروت. ولكني رفضت. لست مستعداً لفعل ذلك. صحتي تمنعني من ذلك. أبذل قصارى جهدي على الأقل لأحافظ على الجدال دائراً. إن ما يثبط العزيمة اشد ما يكون الأمر هو أن عدداً كبيراً من المثقفين، وأعتقد أن هذا يمكن أن يوضع مباشرة عند بوابة قيادة «م.ت.ف.»، وهم جالسون ينتظرون ليروا كيف ستسير الأمور. هناك الكثير جداً من المال تم الوعد به: والسوق الأوربية المشتركة والبنك الدولي قد وعدا بالملايين. مبالغ ضخمة تعوّم من قبل الناس، وهم عادة مثقفون من الطبقة الوسطى يفكرون بمصلحة أسرهم وتحسين مستواهم. لذلك لا يوجد، بعبارة أخرى، محاولة متفق عليها قام بها مثقفون فلسطينيون، مع استثناءات قليلة، لشن هجوم حقيقي ضد السياسات الحالية، ومحاولة تغييرها وإحداث تغيير.

هناك مشكلة أخرى. لقد كتبت مقالاً حولها منذ شهر أو نحوه، وهو أن درجة التغلغل السيكولوجي في صفوف المثقفين الفلسطينيين من قبل الإسرائيليين هائل جداً الآن، حتى أن القليل من الفلسطينيين لديهم القدرة الآن على التفكير على نحو مستقل. أي هناك تلك الفكرة التي تفيد أننا نستطيع فقط تطوير أنفسنا بالتعاون مع الإسرائيليين. وهذا يحدث في وقت أصبح فيه الاحتلال أسوأ. يقتل الجنود الإسرائيليون

الفلسطينيين ويدمرون المنازل الفلسطينية ويصادرون الأرض ويحيلون حياة الفلسطينيين وخاصة في غزة إلى جحيم على الأرض. لديك عدد كبير من المثقفين الذين يقومون بحوارات علنية مع الإسرائيليين على أساس الفهم بأن هذا سيحسن قدرنا على أي حال. وبالطبع لم يحدث هذا. إن ما فعله هو تقديم إجراء للاستسلام حتى تكون إرادة المقاومة قد انتهت. هذا أهم شيء على الإطلاق بالنسبة لي.

د. ب.: هذه الكولونيالية الفكرية التي وضعتها للتو هي واحدة من موضوعات «الثقافة والإمبريالية».

إ.س.: إنها دمج منظور المستعمر (بكسر الميم) في ذاتك، حتى تصبح غير قادر على فعل أي شيء دون وصايته ودعمه وأن ذلك التشريع لا يأتي من مجتمعك ومن قيمك، ولكن من مجتمعه وقيمه هو. هذا مهلك جداً، وعميق جداً الآن حتى أنني لا أتساءل إن كان ممكناً إيقافه أو تعديله. لا أريد أن أكوّم كل المشكلة في حضن شعبي، ولكني أعتقد أنها منتشرة في العالم العربي، أعتقد أن هناك حساً بالحتمية تجاه الولايات المتحدة وأنها تمثل الرابح. ليس هناك عائق. ليس هناك بديل. لم يعد هذا عالماً ثنائي القطب. هناك قطب واحد فقط. تضع الولايات المتحدة القواعد. لقد اخترعت هذه الجملة «عملية السلام»، وهي هجينة على العربية. الكثير من الناس الآن بين المثقفين اليساريين الذين كانوا جزءاً من المقاومة ضد الإمبريالية، وقوميين عرباً منذ عقود، قد تحولوا الآن ليصبحوا علماء اجتماع يتحدثون لغة جديدة. هذا استثنائي جداً.

والنقطة الأساسية التي يمكن أن تثار هنا بالعودة إلى «الثقافة والإمبريالية» هي أن «م. ت. ف.» والتي اسمها «منظمة التحرير الفلسطينية»، والتي ولدت كحركة تحرير، هي على ما أعتقد حركة التحرير الوحيدة التي أعرفها في القرن العشرين وحولت نفسها، قبل الاستقلال، وقبل انتهاء الاحتلال الكولونيالي، إلى متعاون مع القوة

المحتلة. لا اعرف مثالا واحدا عن هذا النوع من التحول. لذلك وبمعنى من المعاني فقد كسرنا النمط، الذي افترض أنه تميز تاريخي من نوع ما.

د. ب.: أنا مشوش قليلا حول بعض الإشارات المختلطة القادمة من مصدرين مختلفين. لقد كان شمعون بيريز في بوسطن قبل أسبوعين. وقد قيل على لسانه إن عرفات قد قال له: «قررت «م.ت.ف.» أنها ستشكل كونفدرالية مع الأردن ولن تعلن دولة فلسطينية منفصلة». ثم قبل أيام قليلة، فإن الأمين العام لحزب العمل الإسرائيلي الحاكم قال إن الفلسطينيين ستكون لديهم دولتهم المستقلة في نهاية العقد.

إ.س.: أعتقد أن هناك أمرين يقالان حول ذلك. أولا: حين يدلي قادة «م. ت. ف.»، بمن فيهم عرفات، ببيانات، فهي بيانات اللحظة. ليس لديهم تحضير أو دراسة أو تحليل استراتيجي معتنى به أو تفكير عقلاني وراءها. لذلك، في رأيي، فهي في مكان ما بين كونها غير مسؤولة إطلاقا وبين كونها غير هامة. صحيح أن هناك فقرة في أحد قرارات المجلس الوطني تتحدث حول كونفدرالية مع الأردن. ولكن منذ بداية صيف العام الماضي وحتى الآن، مع استثناء واحد أو اثنين أقحما على «م. ت. ف.» من قبل الأردنيين، فإن «م. ت. ف.» قد تجنبت أي تنسيق مع الأردن وعملت بأسلوب يستخف بالأردن وسورية، وهذا أمر يتسم بالحمق تماما. هناك فروق واضحة بين الأسد وعرفات وحسين. إن جماهيرهم مختلفة. مصالحهم بعيدة المدى مختلفة وهي متضاربة بطرق كثيرة. ولكن من الحماقة، مع حقيقة وجود مجموعات سكانية كبيرة من الفلسطينيين في تينك الدولتين، أن يتم تجاهلهما بالكامل والادعاء بأن عرفات، الذي هو الآن من المداومين على حضور موائد المآدب العظيمة في باريس ولندن، وكذلك مريديه، يتظاهرون بأن فلسطين مكان ما آخر.

لذلك أعتقد أن تعليقاته حول الكونفدرالية مع الأردن كانت مجرد تملق كلامي لهذه القضية في المجلس الوطني ولأن الأردنيين سحبوا

البساط من تحت قدميه وهم الذين قالوا له: لا يمكنك عدم التعامل معنا. وعلى أي حال فنحن أقرب جيرانك إليك شرقا. لدينا عدد كبير من السكان الفلسطينيين. ونقطة الترانزيت على جسر ألنبي هي النقطة الأهم لك. إنها الأقرب إلى أريحا هذا إذا ما حصلت على أي شيء يشبه الحكم الذاتي. لذلك لا تستطيع أن تفعل هذا. إذن هذا هو أحد الأمرين.

الأمر الثاني هو الموقف الإسرائيلي، الذي هو أصوات كثيرة تتحدث بأمور كثيرة مختلفة، جزئيا في تشوش وجزئيا كطريقة لإبقاء العالم الخارجي في حالة معلقة ودون توازن. إن ما يقوله «يوسي بيلين» مثلا مختلف جدا عما يقوله «رابين». وما يقوله «بيريز» مختلف جدا عما يقوله «رابين». هناك سياسة متعمدة من الإشارات المختلطة يجب أن تفهم على ما أعتقد على هذا النحو فحسب. والسياسات هي على الأرض. والحقيقة هي أنه في الأشهر القليلة الماضية تم مصادرة المزيد من الأراضي الفلسطينية. في كانون الأول (ديسمبر) لوحده، صادرت إسرائيل (٩٠٠٠) دونم.

د. ب.: كم هي مساحة الدونم؟

إ.س.: كل (٤) دونمات تعادل أكرا واحدا. عملية الاستيطان مستمرة. لذلك فإن أي نوع من الدولة أو الكيان الفلسطيني المنوي في الضفة الغربية وغزة محكوم أن يكون مسيطرا عليه أو أن يضم جزئيا من قبل إسرائيل، هكذا أرى الأمور. فالإسرائيليون هم الذين يقولون، مثل المدير العام الذي ذكرت، أنه ستكون هناك دولة فلسطينية قبل نهاية العقد، وقد ابلغني الكثير من الإسرائيليين بهذا أيضا. ولكن جوابي هو: «أي نوع من الدولة؟» ليس لدي أي شك بأن الفلسطينيين سيحصلون على تقرير المصير في النهاية. إنه طريق طويل مليء بالعذاب. وهو لا يسير مباشرة إلى الأمام، هناك الكثير من العقد والمنحنيات والمنعطفات والحركة نحو الخلف. ولكن المسألة المطروحة الآن هي نوع الدولة التي

بدأنا ببنائها في هذه القطعة الصغيرة البائسة من الحكم الذاتي. أعتقد أن الشعور العام أنها ستكون محشورة بين الأردن وإسرائيل. وستكون على الأرجح معبرا لرجال الأعمال الإسرائيليين الذين يحاولون القيام بغزوات في هذه الأسواق الواسعة غير المطروحة بالنسبة إليهم، بما فيها أسواق الخليج. و أستطيع أن أقول لك إن المصريين، مثلا: اتحاد الصناعة المصرية والمصارف وغيرهم في القطاع الخاص قلقون جدا من اتفاقية غزة – أريحا وذلك بالضبط لأنها تضع جهودهم وقاعدتهم تحت حظر التغلغل الإسرائيلي. وينطبق هذا أيضا على لبنان. هناك مرجل يغلي في كل أنحاء الشرق الأوسط. وأعتقد أن قضية الدولة الفلسطينية في هذه المرحلة في سياق هذه الملاحظات هي رأس الجبل الجليدي فقط. لا أعتقد أنها القصة الكاملة.

د. ب.: هناك تقرير اليوم على لسان نبيل شعث، الذي يقود الوفد في مباحثات طابا في مصر. لقد قال إنه كان على الفلسطينيين أن يتغلبوا على مخاوف الإسرائيليين الذين كانوا يسألون عن وظائف الدولة المستقلة بعد أن تنضج. قال «المكالمات الهاتفية الدولية والطوابع والجنيه الفلسطيني، هذه هي كل القضايا. في رأيي أنها لم تكن أبدا حصرية للدول، ولكن كان يجب إقناع الإسرائيليين.»

إ.س.: السيد شعث صديق قديم لي. إنه ناطق مخلص جدا للسيد عرفات. من الصعب علي أن أفهم التغيرات في موقفه. لقد كان متساوقا حول هذا حتى الآن، أي منذ الأشهر الستة أو السبعة التي مضت منذ أيلول (سبتمبر). ولكن هناك معان مختلفة للرموز. خذ مثلا فكرة العملة الفلسطينية والموقف الإسرائيلي هو: نعم، فلتكن لديهم عملة فلسطينية، حتى الجنيه الفلسطيني وصورة عرفات عليه. ولكنها أشبه بجنيهات بنك سكوتلاندا. لا قيمة لها إ طلاقا، وستكون جزءا من النظام المالي الإسرائيلي. لذلك فالإسرائيليون قادرون تماما على منح كل الأمور التي

يتحدث عنها السيد شعث، وهي الأمور التي أشير إليها على أنها رموز للسيادة مع حجب السيادة في الوقت نفسه. هذا ما أخشاه. لم نقم بشيء لا يمكن فعله بكل تأكيد بالمفاوضات الذكية. وهم يقبلون دائما الشروط الإسرائيلية. لم نقم بشيء من شأنه تخفيف عبء الاحتلال. لم نقم بشيء من شأنه دفع الإسرائيليين بعيدا بالمسيرات المنظمة، بالاستمرار بوسائل الانتفاضة، ولكن على نحو اشد تركيزا، واشد تنظيما وتنسيقا مع كل الإمكانيات الفلسطينية الحالية. لا نزال مجتمعا غنيا وكثير المنح. لاشيء قد تمت تعبئته. نحن شعب غير معبأ. والفكرة هي انه بالجلوس إلى تلك المفاوضات في طابا وباريس وواشنطن، أي ثلاث مجموعات تجري مفاوضات في آن واحد الآن، تحت رعاية الولايات المتحدة ومصر، أي نحن نأمل مبدئيا وبالتفاوض الذكي والأساليب الملتوية الحصول على صفقة جيدة. ولكن الصفقة الجيدة لن تعطي الاستقلال، ولن تعطي التحرير. أخشى أن يكون الدكتور شعث قد أضاع الهدف الحقيقي.

د. ب.: كانت إحدى أفكارك الرئيسية في «الاستشراق» هي: «لا يستطيعون تمثيل أنفسهم. يجب أن يمثلوا». ألم تكن هذه هي الحال فيما يسمى بعملية السلام؟

إ.س.: المأساة هي أن نفعية «م. ت. ف.» أو(«م. ت. ف.» ياسر عرفات) في الأمر كله هي نفعية تمثيلية بالضبط. ولكنها تمثل الفلسطينيين والشعب الفلسطيني دون أن يكون لها في الوقت نفسه الآن الشعبية ولا الشرعية، أو هل نقول الدافع والحدة التي كانت تتمتع بهما ذات مرة. هذه هي «م. ت. ف.» التي جردت من كل شيء عدا اسمها. والحقيقة أنه ما يزال لديها هذه المزقة الأخيرة من الشرعية وهو ما يجعل الإسرائيليين يتحملونها. أعتقد أن هناك تناقض جوهري ما بين تعتقد «م. ت. ف.» أنها تفيد إسرائيل به بين ما تنويه إسرائيل لـــ «م. ت. ف.». إنها بالفعل ضربة ناجحة جدا. خلال السنوات القليلة الماضية

اعترفت أكثر من مائة دولة بفلسطين لذا قال الإسرائيليون: «فلنجعل هذا في صالحنا. هاهي قيادة منقطعة تماما عن شعبها. لم تكن أبدا أضعف مما هي عليه الآن. إنها فاسدة. لم تكن سمعتها أسوأ مما هي الآن. فلنستغل الوضعية الدولية لمصلحتنا. فلنجعلهم يوقعون ما نريده إلى حد كبير. ثم سنرى. ولكن ليس لدينا فيها مصلحة أكثر من ذلك. واعتقد أن حسابات «م. ت. ف.» مبنية على حقيقة أنهم وما أن يسقطوا في أحضان الإسرائيليين فسوف يبقون هناك. وأعتقد أنهم على خطأ. أعتقد أنه ما أن يتم إبرام الاتفاقيات الثانوية المختلفة، مثل تلك التي تم توقيعها في القاهرة في الأسبوع الماضي، لن تعود هناك من فائدة لـ«م. ت. ف» بعد ذلك. سيذهب عرفات، هذا إن ذهب، إلى مدينة أريحا وسيغرق في وضع عليه فيه أن يحفظ القانون والنظام تحت حماية ووصاية وحتى إشراف الإسرائيليين، الذين سيستمرون في التحكم بالحدود، رغم حقيقة انه سيكون هناك خيمة للجمارك الفلسطينية. إذا نظرت إلى الاتفاقية، وهي موجودة لدي، سترى أنها شديدة التنازل وأن رموز السلطة التي كان يتحدث عنها الدكتور شعث موجودة، ولكنها دون معنى. السيطرة والسلطة والقرار النهائي لاتزال كلها في يد الإسرائيليين.

د. ب.: لقد جرى الإقرار بذلك في الصفحة الأولى من «نيويورك تايمز» قبل أيام قليلة. لقد أوضحت أن إسرائيل هي «الشريك الأعلى منزلة» في المفاوضات.

إ.س.: بالضبط. رغم أن الدكتور شعث قد قيل على لسانه مرة إثر أخرى ومنذ بداية إعلان المبادئ في أوسلو وحتى الآن ما يلي: «تساو كامل بين الجانبين الإسرائيلي والفلسطيني». هذه من تلفيقات مخيلته كما أعتقد.

د. ب.: ربما هي المساواة بين فيل ونحلة.

إ.س.: صحيح.

د. ب.: ماذا تقول مصادر معلوماتك في الضفة الغربية وغزة؟

إ.س.: الأمر واسع الانتشار تماما. أتحدث إليهم كثيرا. أزور وأزار. وعلي بعد أن أقابل و أتحدث إلى أي شخص ينتمي إلى مدى واسع تماما بالفعل من الرأي والوضع الاجتماعي القانع بالحالة الراهنة. أعتقد أن الخوف الرئيسي، وهذا أمر واضح، ليس من أن الإسرائيليين حصلوا على صفقة رائعة، وهذا أمر واضح لأي شخص له عقل يستخدمه، فسيأتي من الخارج أشخاص كثيرون لم يعرفوا السجن أبدا، وكانوا يعيشون في ترف في أوربا أو تونس، هؤلاء سيأتون ويبدأون بحكم أناس كانوا يخوضون معركة التحرير والاستقلال في السنوات السبع والعشرين أو الثماني والعشرين الماضية. هذا هو الانطباع العام لدي من الأشخاص الذين أتحدث إليهم.

د. ب.: لدى «شبكة عدالة الشرق الأوسط» رسالة إخبارية تسمى «اختراق الحصار». وهي تتحدث في الإصدار الأخير عن الفلسطينيين في الأراضي المحتلة على أنه «مجتمع دون معنويات. اللامبالاة واليأس يسودان أقساما من المجتمع.» وكذلك تتحدث على نحو منذر بالشؤم عن «العنف المسلح المتنامي الذي يهدد بتجزئة المجتمع المدني.»

إ.س.: هذا هو الأمر الجديد. فعرفات يتشكى مجددا اليوم الواقع في ١٧ شباط (فبراير) في «نيويورك تايمز» من هذا، من أن الإسرائيليين يدخلون كثيرا من السلاح إلى مجموعات في الضفة الغربية وغزة تسبب الفوضى. والحقيقة هي انهم يعطون السلاح أيضا إلى جماعته هو. هناك تقارير واسعة الانتشار مجددا، ولست أعتمد على وسائل الأعلام الغربية أو الإسرائيلية، بل على أشخاص على الأرض يقولون لي إن هناك عصابات الآن، تتكلم باسم «فتح»، وهي اكبر المجموعات الفلسطينية تحت سيطرة عرفات المباشرة، يتجولون عبر

الأراضـي. وهـم يدمـرون المنـازل. يعـاقبون النـاس. يصـادرون الأرض. ينهبون. وكل هذا لمصلحة ما يسمى السلطة القادمة.

بالطبع فإن السؤال الكبير في كل هذا هو ما إذا كانت ستجري أي انتخابات، وما معنى الانتخابات في وضع يتحكم فيه بالشارع على هذا النحو رجال العصابات، أما «حماس» وهي حركة المقاومة الإسلامية، فكانت فعالة بالطبع. دورها غامض جدا، أي أنها تقاوم جزئيا الاحتلال وتعارض جزئيا اتفاقية السلام، ولكنها تهيئ نفسها أيضا كما يبدو للمشاركة في السلطة. إنهم يتحكمون بقسم هام من السكان. ويستطيعون إخراج الناس إلى الشوارع. لذلك هذا هو العامل الثاني.

العامل الثالث هم الأعضاء المستاؤون من «م. ت. ف.» الذين تمردوا على قيادة «م. ت. ف.» في تونس، ما يسمى بصقور فتح، كما يشار إليهم، وهم يخوضون معارك ضد رفاقهم السابقين.

العنصر الرابع هو الوحدات الإسرائيلية السرية المختلفة. ولأول مرة أرى ذلك. كان هناك إعلان في الصحافة الإسرائيلية ذكر فيه أن الميزانية الإسرائيلية السنوية فيها مادة مخصصة لنفقات هذه المجموعات السرية التي تستخدم المتعاونين، ولديها أشخاص متخفون يدخلون لخلق وضع من الفوضى والرعب. لذلك إذا دخل عرفات وجماعته إلى أريحا، فإن ما سيرثونه فعلا هو فوضى فظيعة، الإسرائيليون سعيدون جدا لتخلصهم منها، رغم أنهم يقولون في الوقت نفسه: إذا حدث ما يؤثر على أمننا، سنعود مجددا ونفعل ما علينا فعله.

د. ب.: اعتقد انه خلال واحد من أول لقاءاتنا قلت لي أنه إذا حكينا القصة الفلسطينية للجماهير الأمريكية فعلى الأقل سيكون لديك دائما بداية البداية. هل لازال هذا صحيحا؟

إ.س.: أجل. أعتقد ذلك. لأني اشعر بقوة الآن، بعد اتفاقية أوسلو، أن التناقض بين تلك الورقة البائسة والتاريخ الهائل من التجريد من

الأملاك والمعاناة والخسارة الذي هو في الواقع حكاية فلسطين، هو تناقض هائل لذا يجب أن تحكى. لابد من سردها. لا يمكن لها أن تختفي هكذا ببساطة. كتبت مقالة بالعربية قبل عدة أسابيع وقلت فيها: من المسؤول عن الماضي؟ لم تعد «م. ت. ف.» كذلك بعد الآن. إن ممثليها في الأمم المتحدة بالتعاون مع الإسرائيليين يراجعون بعض القرارات القديمة للأمم المتحدة. هناك الآن إرادة شاملة من جهة ممثلي «م. ت. ف.» ومؤيديها في أماكن مثل أوربا والولايات المتحدة للتعاون مع مجموعات مؤيدة لإسرائيل والصهيونية تحت شعار: «لننس الماضي ونتعلم كيف نعيش معا»، مع أن هناك (١٢,٠٠٠) أو (١٣,٠٠٠) سجين فلسطيني يعانون الأمرين في السجون الإسرائيلية. هناك حرفيا ملايين من اللاجئين الفلسطينيين لم يحصلوا على تعويض ولا يزال وضعهم دون تحديد. هناك لاجئون في دول عديدة دون وضع قانوني.

ثالثا، وهي النقطة الأهم، أن الناس الذين عانوا من انتهاكات الاحتلال في السنوات السبع والعشرين أو الثماني والعشرين الماضية، لم يذكر أحد شيئا عن تعويضاتهم. والحقيقة هي أن اقتصادهم قد دمر. منازلهم نسفت. أرضهم استولي عليها. كل هذا من المفترض الآن، حسب القيادة الحالية لـــ«م. ت. ف.»، أن يمحى لأن تاريخا جديدا سيبدأ. أجد هذا غير مقبول على الإطلاق، وبينما كان المرء يشعر في الماضي على الأقل أن المنظمة التي تمثله، «م. ت. ف.» كانت جزءا أيضا من هذا التاريخ، وكانت تبذل جهدها للحصول على إنجاز من خلال تقرير المصير والاستقلال، رغم أنهما في الحد الأدنى، وها هي تتحدث الآن عن محو الماضي. فكرة الذاكرة الجماعية تصبح الآن، وبسرعة، غير مسموح بها حتى من قبل الفلسطينيين. هذا أمر أجده غير مقبول. أجد نفسي أتذكر باستمرار أعداد الناس الذين عرفتهم، ليس عائلتي فحسب ولكن أصدقاء وزملاء ورفاق، كافحوا وماتوا من أجل قضية توضع الآن إلى درجة معينة،

على الرف.

هناك رمز كامل لهذا بالنسبة لي، ألا وهو التباين بين الخطاب الذي ألقاه عرفات في ١٣ أيلول (سبتمبر) والخطاب الذي ألقاه رابين. كنت أحادث محمود درويش حول هذا. قلنا إن الشخص الذي ألقى الخطاب الفلسطيني كان رابين. أما عرفات فألقى خطاب رجل الأعمال والذي شكر في نهايته كل شخص، لكن لماذا؟ ليس الأمر واضحا تماما. إن شناعة محو تاريخنا بقليل من التفاهات كما فعل هو [عرفات]، مع العلم أنه في الماضي كان الخطاب الفلسطيني يكتب من قبل أشخاص كدرويش وغيره، والآن يكتبه بعض رجال الأعمال الذين هم من عصبته، هذه الشناعة جزء من هذه الخيانة للتاريخ التي تجعل الأمر اكثر إلحاحا بأن يعاد سرد الحكاية.

كما أعتقد أيضا أن كثيرا من الناس، وبالتأكيد هذا يصح على العالم العربي، وربما على أوربا الغربية والولايات المتحدة، قد تعبوا من الفلسطينيين. يقولون: «حسنا، وأخيرا حصلتم على ما تريدون، شيئا يشبه دولة. هذا كان جزءا من نجاح الإخراج المسرحي للاحتفال، الذي شاهده العالم كله. وأخيرا حصلتم على شيء ما، لذا هيا ابدؤوا ببناء دولتكم وتوقفوا عن الشكوى».

د. ب.: تقوم بإعطاء الكثير من المحاضرات. البارحة كنت في كولومبوس، اوهايو. وأنت ذاهب إلى كاليفورنيا في الأسبوع القادم. أحد أهم النواحي في محاضراتك هي الأسئلة والأجوبة. أنت تخلط الأمور وتنخرط مع جمهورك، ما الذي يقوله الناس حين يذهبون إلى الميكرفون؟

إ.س.: أعتقد الآن أن الناس يسألون عن الصورة الجميلة المطبوعة. هناك حس عام بأن هرج ومرج المشهد المسرحي في أيلول (سبتمبر) الماضي، والذي لا يمكن بخسه حقه، قد تبدد. الناس قلقون الآن من الملاحظة العرضية والمشهد العرضي في وسائل الإعلام، مشهد عمليات

القتل أو ما يقوله رسمي إسرائيلي: «لا توجد تواريخ مقدسة». لو قال فلسطيني هذا، بعد توقيع اتفاقية قانونية دولية صادق عليها البيت الأبيض، فإن الجحيم كله كان سينصب عليه. ولكن بيريز يقول ذلك بانتظام. وفي الوقت نفسه قال: نريد من الفلسطينيين أن يحصلوا على كرامتهم. قال ليس هناك تواريخ مقدسة. إذن حتى هذه المسألة ذات الحد الأدنى أي الحصول من (٢٠) ميلا مربعا حول أريحا قد استغرق حتى الآن خمسة أشهر ويمكن أن يستغرق خمسة اشهر أخرى قبل أن يحدث أي شيء. كل هذا غامض لأشخاص يظنون أن الاتفاقية في الواقع كانت علامة على مرحلة جديدة، على طور جديد من العلاقات. ويريدون أن يعرفوا لماذا. لذا فإنه على ابسط مستوى يريد الناس أن يعرفوا لماذا؟

من المثير للاهتمام أني لا احصل على كثير من التعليقات من الإسرائيليين أو مؤيدي إسرائيل، أو المزيد من المؤيدين الإسرائيليين بالمقارنة مع الإسرائيليين أنفسهم. في الماضي اعتدت أن أحصل على السؤال الصيغي الذي توجهه المجموعات المؤيدة لإسرائيل الذين يقرأون البيانات لي. في مكان ما في الخليج قال السيد عرفات إن فلسطين غير قابلة للتقسيم وعلينا أن نستردها بالكامل، وهذا النوع من الأمور. ما رأيك بذلك؟ هذا النوع من السؤال الترهيبي لم يعد يسأل الآن. لم أعد أحصل على مثل هذا السؤال. ولكن ما أحصل عليه معظم الوقت أسئلة تتعلق بالمعلومات، تريد الناس أن تعرف. وهم قلقون جدا أيضا، واعتقد أن هذه أمارة جيدة، أي أن تربط هذا مع أماكن أخرى في العالم حيث تجري أعمال السلب والنهب: في جنوب أفريقيا وما شابه. ولكني اشعر أيضا أن هناك لامبالاة عامة بالسياسة في حرم الجامعات.

د. ب.: ذكرت الترهيب الذي تتعرض له في المحاضرات. ولكن هناك ما هو أخطر من ذلك، فقد تلقيت تهديدات بالقتل الخطر وكل أنواع السباب، وهذا يقودني إلى السؤال التالي: كان بإمكانك أن تعيش حياة

أكاديمية شديدة اليسر وأكثر راحة. كان بإمكانك أن تكتب أكثر. كنت ستعمل أكثر حول الموسيقى وأشياء أخرى كثيرة ولكنك اخترت في مرحلة ما أن تخطو خارج غرفة الصف وقاعة المحاضرات إلى مجال آخر، إلى السياسة النشطة لم فعلت ذلك؟

إ.س.: لم أشعر أبدا أن لدي خيارا. في مرحلة ما بعد عام (١٩٦٧) شعرت أني كنت مطالبا بذلك. على اكثر المستويات مباشرة من قبل أصدقاء كانوا يطلبون المساعدة، أن اكتب شيئا ما، أن أوقع شيئا ما، أن أظهر في مناسبة ما وأتكلم. شعرت أني لا أستطيع الرفض. ثم بسبب الأبعاد الهائلة التي تكشفت لي عما يعنيه هذا كله. لم تكن مجرد مسألة خلفيتي العرقية. لم اكن أفكر انه لأني فلسطيني، ولأني في الوقت نفسه انخرطت في الصراع الفلسطيني، مع فلسطينيين وآخرين، مع مجموعات التضامن الأفريقية والأمريكية اللاتينية في هذا البلد والمجموعات الأفريقية وهكذا دواليك، فقد أدرك المرء أن النضال الفلسطيني له دور مركزي في كل هذا لأنه يدور حول العدالة. كان يدور حول القدرة على النطق بالحقيقة أمام أفضليات صعبة للغاية، وبمواجهة عدو إشكالي جدا كان على أي حال الضحية المعترف بها لواحد من اكثر عمليات الابادة شناعة في التاريخ البشري، والذي في رأيي اصبح الآن مضطهدا (بكسر الهاء) لشعب آخر. أن تكون قادرا على التكلم حول هذين الأمرين كليهما، وأن تكون عادلا بمعنى من المعاني لكلتا هاتين التجربتين، كان بالنسبة إلي تحديا فكريا وأخلاقيا كما ظننت. والأمر الواحد يؤدي إلى آخر. ومع تضخيم لآراء المرء في وسائل الأعلام الأمريكية، وسواء اعتبرت ذلك من حسن الحظ أو من سوئه فهو أمر آخر، ولكن كانت هذه حقيقة، لقد شعرت بالتدريج انه لم يكن أمامي خيار. بدأت بعد فترة بالاستمتاع بالأمر. بدا مهما لي أن أقاوم وأحكي الحكاية وأن أبقي نفسي دائما عند معايير باذلا أفضل جهودي في مجال الصدق والشمولية اللذين شعرت

انهما يجب أن يبقيا مرفوعين. ظننت أن ذلك كان جزءا من مهمتي الفكرية.

مع منتصف الثمانينات لم أستطع التمييز بين البروفسور والمثقف. فكرت في أن الواحد منهما يستتبع الآخر. أن أكون بروفسورا لم يعن لي، كما حاولت أمي غالبا إقناعي بذلك، أن أكون اختصاصيا في خلوته، يركز على موضوع واحد ويجلي فيه، ولكنه يستلزم حسا بالمهمة الفكرية، وقد وجدتها متمثلة في أعمال وسير أشخاص آخرين شأن تشومسكي وصديقي إقبال أحمد. لذلك لم اشعر بالوحدة. وكان هناك الكثير جدا من الفلسطينيين الذين عانوا ومروا بأوقات أسوأ بكثير مما عانيت. أنا مخلوق ذو امتياز، بالمقارنة. لذلك شعرت أن لدي مسؤولية على القيام بها. وهذا ما حصل. لم يكن لدي الوقت في معظم تلك السنوات لأفكر بالأمر بطريقة مدروسة كهذه. ولكن هكذا سأجيب على السؤال.

د. ب.: أنا مهتم بثقافة المقاومة هذه وخلقها، ولكن ليس المقاومة فحسب، لأن ذلك يوحي بعنصر مكون تفاعلي، ولكنه شيء يعزز البدائل الإيجابية.

إ.س.: لا أفكر عبر المراحل الأولى جدا من الدهشة والذعر، حين شعرت الشعوب الوطنية تاريخيا بأنفسها وهي تكتنف بالغزوات والشعوب القادمة من الخارج لتستولي على أرضهم وتستقر فيها وتفعل بها ما تشاء. عبر تلك المراحل الأولى تلك، أعتقد أن المقاومة كانت تعني دائما الصمود والقتال. ولكن حدث أيضا خلال مجرى العملية أن طرحنا بديلا للوضع الحالي. لقد أدهشني أنه من المتضمن في النضال الفلسطيني مثلا أننا منذ البداية كحركة قد قلنا إننا لسنا مهتمين بقومية انفصالية أخرى. كان ذلك حين انضممت إلى الحركة. كنا غير مهتمين بقومية أخرى تقاوم قوميتهم حتى نحصل على قوميتنا، وأننا كنا سنتحول إلى الصورة المرآتية لهم. وأنه كما أن لديهم الصهيونية فنحن سيكون لدينا

صهيونية أيضا، باستثناء أنها ستكون فلسطينية ولكننا بالأحرى كنا نتحدث عن بديل تكون فيه التمييزات التي تمت على أساس العنصر والدين والمنشأ القومي هي تمايزات يتم تصعيدها بشيء ما سميناه تحريرا. وهذا منعكس في اسم «منظمة التحرير الفلسطينية». أي بدا لي أنه جوهر المقاومة. وهو لا يعني أن تضع قدمك بعناد على الباب، ولكن فتح نافذة. من أكثر الأمور مدعاة للحزن، كما أعتقد، في تاريخ التحرير في القرن العشرين، هو خيانة التحرير بسبب أهداف قصيرة المدى مثل الاستقلال وتأسيس دولة. في حال الفلسطينيين لم نصل حتى إلى ذلك واتخذنا طريقا خارجيا. أعتقد أن السبب يعود إلى غياب الثقافة العامة. اعتقد أن ما اعتمدنا عليه كان الكثير من الشعارات. كنا شديدي الانهماك بالسياسة، في العالم العربي، والتي كانت تدور منذ خمسينات هذا القرن عبر دوامة متجهة إلى الأسفل من الانحطاط والفساد والأوليغارشية والاتكالية والاستبداد. كنا متأثرين بكل ذلك سلبيا، رغم أننا كنا في البداية الشعب الذي تكلم على نحو اشد بلاغة حول الحرية والديموقراطية وحق التعبير، وغياب الرقابة. ولكني أعتقد في النهاية أن بيئتنا قد حطت بنا.

أهم الأمور كان حسا بأن عليك أن تبقى مغيرا لأهدافك. أحد الأمور مثلا فيما يتعلق بالمؤتمر الوطني الأفريقي ومانديلا، أعرف إنه من الأمور الدارجة انتقادهما، ولكن لم يكن هناك أي شك في أذهان كل الناس الذين حاربوا الأبارتهيد أن الهدف، البديل عن الأبارتهيد كان شخصا واحدا، صوتا انتخابيا واحدا. في حالة الفلسطينيين كانت تلك هي فكرتنا، أيضا من البداية، ولكننا غيرناها بعدئذ. كان الدولة العلمانية الديموقراطية. ثم أصبح دولة على أي جزء من فلسطين يمكن تحريره. ثم اصبح الحكم الذاتي. ثم اصبح الحكم الذاتي المحدود. ثم اصبح بالنتيجة التعاون مع الإسرائيليين. لذلك إذا كنت غير قادر على الحفاظ

على ثقافة المقاومة والبدائل، عندها ستكون خاضعا لنوع من البازار، حيث البدائل تتغير تقريبا مع كل فصل من فصول السنة. وبينما كان عرفات قبل سنوات قليلة يتحدث وكأنه قائد لأحد الألوية الحمراء في بداية الثورة الروسية، فقد انتهى الآن وهو يتكلم كموظف في الخارجية الأمريكية. أعتقد أن هذا هو ما كان الأكثر إحباطا للآمال. لذلك سأقول إن الإلزامي في رأيي الآن، في كل من العالم العربي وفي العالم الفلسطيني على نحو أخص، هو في الحقيقة إعادة دراسة فكرة المقاومة وثقافة المقاومة. نحن الآن في مرحلة جديدة. ما يريده الإسرائيليون هو تطبيع للعلاقات بين إسرائيل والدول العربية بما فيها الفلسطينيون. وبالطبع أنا مع التطبيع. ولكني أعتقد أن التطبيع الحقيقي يمكن أن يأتي فقط بين طرفين متساويين عليك أن تكون قادرا على التمييز بين الوصاية والاتكالية من ناحية والاستقلال والصمود كشريك متساو مع محاورك. لم نفعل ذلك بعد. ولهذا اعتقد أن هذه هي المهمة السياسية الأكثر أهمية للعقد المقبل.

د. ب.: لقد فهمت سؤالي عن ثقافة المقاومة على انه عن فلسطين والشرق الأوسط. كنت مهتما في وجهات نظرك حول الولايات المتحدة.

إ.س.: من الصعب القول الآن. اليسار الذي انتمي إليه، في حالة من التشوش. هناك ظاهرة ما بعد الماركسية. وهناك ما بعد الكولونيالية. هناك ما بعد الحداثة. هناك الكثير من حركات «الما بعد» فيما حولنا. أعتقد فكريا أن معظمها مشوش. لا علاقة لها إلا على نحو ضئيل بالنضالات الاجتماعية والقضايا السياسية والاقتصادية المعقدة التي تواجهنا اليوم. أعتقد أن هذا تحول في المنظر الطبيعي حتى أن اليسار الأمريكي يبدو وكأنه اتخذ البديل السهل واصبح أكاديميا إلى درجة كبيرة وبعيدا إلى حد كبير عن عالم التدخل والمجال العام، مع استثناءات قليلة. ولا يزال هناك عدد من المثقفين العموميين، مثل تشومسكي وقلة من

الآخرين الذين لا يزالون يثابرون على محاولة أن يقولوا الحقيقة. ولكن المجال العام مليء أيضا بالمثقفين المنمذجين الذين كانوا ذات مرة، على الأرجح، رموزا للمقاومة والمبدأ وأصبحوا الآن شخصيات في وسائل الإعلام ونجوما على منابر المحاضرات ونتيجة لذلك فإن الرسالة أصبحت خرساء.

لذلك أجد، على الأقل من وجهة نظر المثقف الأمريكي، غياب حوار المقاومة وحوار المبادئ المشتركة والأهداف المشتركة والاجتماعية والسياسية والاقتصادية وبالطبع الثقافية، على أنه مثبط للآمال. وهناك أيضا كثير من الحركات التي كانت مقاومة على نحو فعال خلال ستينات هذا القرن، والمجموعات العرقية والحركات النسائية، أجد هذا الغياب نوعا من ضيق أفق التفكير، كما أعتقد، وهذا اليوم أمر سائد. ويأمل المرء انه سيختفي، ربما، وأن مجموعة عامة من الموضوعات والاهتمامات ستظهر. ولكن لا يبدو أنها ستظهر سريعا جدا. في هذه المرحلة، كل ما يستطيع المرء أن يأمل فيه هو تحريك الجدال حول هذه القضايا، وهذا ما يحاول عدد منا أن يفعله.

د. ب.: هل تتحدث عن ثقافة الهوية؟

إ.س.: اجل. أعني ثقافة الهوية. أعني ما يسميه «روبرت هيوز» بـــ «ثقافة التذمر»، الثقافة فوق كل المصالح الخاصة، وسأسميها ثقافة الاحتراف. إنها تستهلك بالكامل كثيرا من طاقة الحركات التي كانت فاعلة خلال ستينات هذا القرن، وحرب الفييتنام وهكذا دواليك. لقد تم امتصاص الطاقة منها واخذت إلى ممرات أصغر. لازالت الولايات المتحدة، مثلا، قوة عظمى جدا على مستوى عالمي. وتأثيرات قوتها على كثير من المجتمعات حول العالم تحتاج إلى أن تقيم وتنتقد بطريقة متساوية. هناك عموما منشورات قليلة جدا اليوم، معابر حيث يستطيع المرء أن يتكلم من فوقها من هذه «ذا نيشن» [الأمة] و «زد»

وكذلك «ذا بروغريسيف» [التقدمي]. ولكن هذه مجرد حفنة ضئيلة من مجال فكري آخذ بالتجانس عموما.

د. ب.: تبدو هذه القضية كلها المتعلقة بالأصوات الحقيقية الصادقة ومن يستطيع التكلم مثلا، وكأنها مركزية في هذا الجدال بعينه.

إ.س.: أعتقد أنها أصبحت مركزية جدا. الفكرة هي أننا يجب أن يكون لنا ممثل من مجتمع «إكس» ومجتمع «واي». اعتقد في نقطة ما أن هذا يمكن أن يكون مفيدا. وقد كان مفيدا لي بالتأكيد. في لحظة معينة كانت هناك حاجة محسوسة لوجود فلسطيني صادق أو عربي صادق يقول أمورا، وعندها كان باستطاعة المرء قولها. ولكني أعتقد أن على المرء دائما أن يمضي إلى ما وراء ذلك، لا أن يقبل ببساطة الدور ولكن أن يتحدى باستمرار الشكل والبنية، ويتحدى الخلفية، ويتحدى السياق ويوسعه ليمتد إلى القضايا الأكبر التي تكمن خلفها. وليس الأمر مجرد سؤال عن التمثيل البسيط وصوت صادق. ولو شبهنا الأمر لقلنا إنه أشبه بأن يكون لديك صوت «تينور» و«سوبرانو» و«ألتو» و«باس» في الجوقة. ولكن القضية الاجتماعية الأوسع بكثير لها علاقة بالتغيير الاجتماعي. وهذا ما نفتقده في اللحظة الحالية.

د. ب.: لن أسألك السؤال الطقسي الأخير ألا وهو: ما هي المشاريع التي تعمل عليها الآن؟ ولكن الكثير من الناس مهتمون بصحتك يسألونني عنك. ما الذي يمكنك أن تقوله لهم؟

إ.س.: إنه نمط مكبوح. لدي مرض مزمن، هو اللوكيميا (سرطان الدم). له لحظاته السيئة. تصيبك تأثيرات ثانوية يمكن معالجتها. أصبت بواحدة في الخريف الماضي.

وقد عولجت بنجاح. الآن أنا في صحة جيدة. أحاول ألا أفكر بالمستقبل كثيرا. على المرء أن يبقى مستمرا فحسب. ولكن في العموم اشعر أني أفضل بكثير فيما يتعلق بي وبوضعي وصحتي. وهذه أمور

مترادفة الواحد مع الآخر. اعتقد أن المعركة الكبرى هي محاولة عدم جعلها مركزا لكل لحظة استيقاظ لديك، ووضعها جانبا والاستمرار بالمهام الموجودة تحت التصرف، لدي الكثير لأقوله واكتبه، كما أشعر، وأريد فقط أن استمر في القيام بذلك.

عن المساهمين في الكتاب

إدوارد سعيد: بروفسور جامعي في مجالات العلوم الإنسانية في جامعة كولومبيا. ولد في القدس في فلسطين في عام (١٩٣٥). وقد درس في القدس والقاهرة

درس في جامعة برنستون ونال درجته الجامعية من هارفارد. كاتب غزير الإنتاج وهو مؤلف «الاستشراق» و«قضية فلسطين» و«عن الإسلام» و «بعد آخر سماء» و«الثقافة والإمبريالية». كتاباه الأخيران «سياسة الطرد» و«احتجاجات المثقف».

إقبال أحمد: بروفسور علم السياسة في كلية هامبشير في ماساتشوستس الغربية. زميل في معهد الدراسات السياسية، وقد حاضر ونشر على نحو واسع

حول قضايا الشرق الأوسط والعالم الثالث. وهو يعمل كرئيس تحرير مشارك في المجلة البريطانية 'العرق والطبقة'.

دافيد بارساميان: مؤسس ومدير «الراديو البديل». ولد في نيويورك في عام (١٩٤٥). برامجه تذاع على اكثر من (١٠٠) محطة يرعاها المستمعون في الولايات

المتحدة وهكذا. وهو مساهم نظامي في «مجلة زد» و مؤلف «كاتبو الاختزال إلى السلطة - تاريخ متسلسل للمعارضة» وكذلك «إبقاء الغوغاء في الصف» (الأخير مع نعوم تشومسكي).

القلم والسيف

احتلت القضية الفلسطينية مكانا واسعا في كتاب ادوارد سعيد، بل إن هذه القضية تحولت إلى هاجس يومي مؤرق لدى هذا المفكر الكبير بعد اتفاقيات أوسلو.

ولعل هذا الالتزام الوطني الأخلاقي الكبير هو الذي حمل "سعيد" في فترة مبكرة، أن يكتب "المسألة الفلسطينية" كي يشرح عدالة تلك القضية لجمهور أمريكي أدمن على قبول الصوت الصهيوني وتأييده. ثم عاد وكتب جملة من الدراسات عن معنى القدس، السلام، التفاوض... جمعها في كتاب من جزئين عنوانه: مدريد - أوسلو.

وهذا الكتاب، هو سلسلة أحاديث مع إدوارد سعيد سبقت وعاصرت اتفاقيات أوسلو، وهو يلقي ضوءاً على تفكير "سعيد"، لا بمعنى المثقف الوطني الذي يتابع الشأن الفلسطيني عن قرب شديد، بل بمعنى الفكر الواضح النزيه الذي يضع يده على النقاط الجوهرية التي عولجت بشكل خاطئ حاصر أفق فلسطين والشعب الفلسطيني.

بسبب ذلك يبدو هذا الكتاب شهادة مزدوجة على فكر "إدوارد سعيد"، شهادة أولى تكشف عن موضوعية الفكر ومصداقيته، فالأمور التي أرّقت "سعيد" يوماً تحولت اليوم إلى كابوس ثقيل.. وشهادة ثانية تعلن اتساق المفكر، التزامه بالحقيقة لأن ما كان يدافع عنه إدوارد سعيد قبل أكثر من عقدين من الزمن لا يزال يدافع عنه اليوم...

ولذلك، يعتبر هذا الكتاب مرآة واسعة لوحدة الأخلاق والمعرفة لدى المفكر الفلسطيني الكبير، ومرآة أيضا لقدرة الفكر على قراءة المستقبل اعتماداً على معطيات الحاضر.

دار كنعان
للدراسات والنشر